دفتا مفكرة زرقاء!

لم تنتبني مثل هذه الرغبة الجامحة، الملحة للكتابة منذ زمن! تحديداً منذ ما يقارب الواحد والعشرين عاماً، منذ أن أصبت بفوبيا الكتابة، منذ أن صَرختْ في وجهي شقيقتي الكبرى، بعد مديح شديد لي من والدتي ومقارنة لم تكن في صالحها:

"أمي لا تعرفك على حقيقتك! أنا أعرفك! لقد قرأتها، المفكرة الزرقاء". هوت بي عبارتها إلى بئر سحيقة، مظلمة، باردة، ارتطمَتْ في قعرها أوصالي، ذهول أطبق مخالبه على كل حواسي!

ما إن أفقت من دهشتي حتى سمعتها تواصل من جديد وبلؤم عبَّرت عنه بغمزات عينيها، وحركات يديها ونبرة صوتها: "أقصد مفكرة يومياتك الزرقاء، الموجودة في الرف الرابع لدولاب ملابسك!".

أسرعت الخطى باتجاه الدولاب، وأنا أرتعش، لا أدري مم أو لِمَ! لا أكاد أسيطر على أي شيء في جسدي منذ أن قذفت في وجهي جملتها اللعينة، بالكاد فتحت الدولاب وأنا ألهث، دسست يدي تحت كوم ملابسي الداخلية و... "أووف" إنها هنا!

كانت مكانها، مفكرتي الزرقاء، هادئة كما عهدتها، مبتسمة في انتظاري، وإن أبدت دهشتها! لم تحن بعد الساعة الخامسة، ولم أُعد أيضاً كوب الشاي، الذي أتناوله وأنا أعبث بزرقتها، قبل أن تنعم أحداث اليوم بدفء أعطافها!... المفكرة في دولابي الخاص، الذي لا مفتاح لبابه. أتذكر أن أول عمل قامت به أمي هو تجميع مفاتيح الثمانية أبواب، والزج بها في أعماق خزانتها، منذ أن حط الدولاب في "الحِجرة[1]" التي تطل عليها جميع غرف منزلنا، بأبوابه الثمانية، ذات اللون الأبيض والحاشية السوداء. كان طوله مملاً بالنسبة لي، أربعة أمتار، إيقاع بطيء، منظر واحد، وظيفة واحدة، لا تنوع! لا حركة. الحل الوحيد لاحتواء ملابس الثمانية أشقاء.

نعم كنا ثمانية، علل أبي أنه حقق رغبته بهذا العدد الكبير، الذي كان يفوق – أحياناً - قدراته المادية، خاصة في مراحل معينة، حتى لا نشعر نحن أبناءه بالوحدة كما عانى هو طوال حياته، بعد أن حرمه المرض من شقيقته الكبرى، نتيجة عدم الرعاية الصحية والتخلف قبل قيام الثورة في **1962**. وبعد أن حرمته رصاصة غادرة، آثمة، مجرمة، ظالمة، من شقيقه الوحيد وهو مستظل تحت شجرة، إبان قيام الثورة. لقد أطلق الرصاصة من أنصار الحكم الإمامي السابق والذين كان يطلق عليهم

---

[1] الِحجرة: صالة توزيع

"الملكيين"، وكان رصاصهم يصطاد الآمنين دون تدقيق في ميولهم الثورية من عدمها، في تلك الفترة!.

كان لكل واحد منا في المجموع، باب دولاب كامل، نصفه في جزء الرفوف ونصفه الآخر في جزء التعليق، تحديداً ملابس الخروج والمناسبات السعيدة، والحزينة أيضاً، لندرة استخدامها!.

تقاسمت رفوف باب الدولاب الثالث والرابع مع شقيقتي التي تصغرني بعام ونصف "سلى" ليس لأن ترتيب تعاقب ولادتنا هو السبب! بل لأنا كنا متوائمتين، متفقتين، متفاهمتين. لا مشاكل أو خناقات دائرة بيننا، شأن كل الإخوة وفي مراحل معينة، لنا رموزنا الخاصة، وطقوسنا المميزة، وأحلامنا المشتركة، وإن بدت سلى أكثر تسامحاً مني وصبراً في معاملة الآخرين، وأكثر إيثاراً لي على نفسها عن طيبِ خاطر ومحبة خالصة!...

يردد أبي دائماً بفخر أنه تمنى قدوم بنت أخرى بعد مولدي في العام **1966**، وأنه يرغب في تسميتها "سلى" ليُكمل مع اسمي "فرح"، كلمات الزامل الثوري المشهور "يا فرح يا سلى، طل يوم أصيل، فجر أيلول عاد، بالنسيم العليل!...." الذي يحبه ويذكره دائماً بنعم ثورة أيلول التي سيراها متجسدة أمامه في ابنتيه "فرح، سلى".

استبشر أكثر بمولد سلى أوائل العام **1968**، تحديداً في شهر فبراير، الشهر الذي انتهت فيه حرب السبعين يوماً، بانتصار جيش الثورة الجمهوري، والقضاء على ذيول الملكيين المؤيدين لحكم الإمامة، بعد أن تم حصار صنعاء لمدة سبعين يوماً!

اسم "نادر" شقيقي الأكبر مني، ورقم ثلاثة في ترتيب الثمانية أشقاء، هو الوحيد الذي خرج اسمه عن كلمات أي زامل ثوري، وعن أسماء لأعلام التاريخ الإسلامي واليمني القديم مثل الباقين. ولم يتحدث أبي يوماً عن سبب تسميته، إلا عندما تلقى أسوأ خبر في حياته وفي حياتنا كلنا. الخبر الكارثة الذي سيقلب حياتنا رأساً على عقب في ما بعد!.

جاهد أبي في توفير متطلباتنا عموماً، وحرص على تعليمنا في مدرسة خاصة رغم ارتفاع تكاليفها. المدرسة الأهلية الخاصة والوحيدة في فترة السبعينيات في صنعاء. لذلك لم يخطر على بالي، ولم أتوقع نهائياً أن أسمع منه جملته المدمرة، حال انتهائي من دراسة الثانوية العامة، بمجموع عال، سمح لي بالحصول على منحة دراسية خارج الوطن لدراسة الجامعة!

جملته التي خنقتني، وأربكت خططي، في السير نحو تحقيق طموحاتي، جعلتني أفكر ولأول مرة بفداحة أنني امرأة، وأن هناك ما يجب عليه وعليّ مراعاته!. لماذا للمرة الأولى؟ لأنه لم يكن أبداً ليفرق بين الأولاد والبنات في المعاملة! كبعض الآباء، بل على العكس تماماً، كان يشعر بالامتنان للمساعدة التي نقدمها نحن الشقيقات الخمس لوالدتنا، مقابل اتكالية أولاده الثلاثة علينا!

لماذا للمرة الأولى؟ لأنه حرص على حريتنا في كل شيء، وعلى تربيتنا تربية حاول فيها أن يطبق كل ما قرأه في هذا الجانب. القراءة التي حاول أن يعوض بكثرتها وتنوعها عن تعليمه الذي حرمته منه الظروف السياسية الشنيعة قبل قيام الثورة، فيما عدا الذهاب

للمسجد وحفظ القرآن في "المعلامة"[2] كما كان يحكيها لنا باستمرار، إلى جانب سرد ذكرياته عن ظروف الحرمان في الأكل والشرب والملبس، لنشعر بالنعمة التي نحن فيها! يحكيها بطريقة تشعرنا بضرورة النجاح بالذات علمياً من أجله وتعويضه ربما بطريقة غير مباشرة عما فقده، فينا، نحن أولاده الثمانية!

تمثلت الحرية التي حاول تطبيقها في أشياء كثيرة، مثل: أنتِ حرة إذا ما أردتِ وضع اللثام على وجهك (كما تغطي معظم اليمنيات وجوههن) أم لا! أنتِ حرة إذا ما أردتِ السير سافرة الوجه في قريتنا بالذات، قريتنا التي تحكمها العادات والتقاليد الخاصة جداً، والغريبة جداً! عادات اختزلتها في شيء واحد، شيء سيطر على شيوخ وفقهاء ورجال وشباب وأولاد وبنات وعوانس القرية، إنه كعب قدم المرأة! "درمها"! إظهاره من عدمه! حلاله من حرامه! نظافته من قذارته! وقس عليه كل شؤون المرأة إذا ما كانت حسنة السمعة أو سيئة السمعة، نظيفة في جسمها وبيتها أوعفنة، (مؤخراً وبحكم الثقافة الجنسية، التي كان من السهل شق رأسي ودلق كل المعلومات الخاصة، من خبايا وأسرار، تطلبها الدخول في تجربة زواج فاشلة، مؤلمة، مقيتة، تنامى إلى معارفي أن كِبر أو صغر أعضاء المرأة الداخلية، الخاصة جداً، والغائرة جداً، مرتبط أيضاً بثقافة "الدرم"!).

---

[2] فضاء يتلقى فيه الأطفال تعليم القراءة والكتابة والقرآن الكريم وغالباً يكون ملحق بالمسجد.

(ما فيش سفر للبنات وحدهن حتى لو للدراسة!!!)

هذه هي جملة أبي التي قذفها في وجهي، ولو علم بأنه سيغير رأيه بعد ذلك ما فعل، ربما كان جنبني مرارة ما عانيت من ألم كان هو أول المشفقين عليّ من شدته. لأنني باختصار كنت ابنته المدللة، وإن لم يفرق في معاملة أبناءه المتميزة، وإن لم يشعرهم بها. يصلني هذا الدفء كثيراً من ألق عينيه، من عطف كلماته، وحنو حواراته... ثم إنني أخيراً المحققة لطموحه وآماله وإن خانته فراسته لمرة واحدة، واحدة فقط! سأدفع أنا ثمنها غالياً، من عمري ومن مشاعري

ربما تكون الغيرة من علاقتي بسلى هي التفسير الوحيد الذي وجدته مناسباً لما فعلته شقيقتي الكبرى، لاعتدائها المشين على مفكرة يومياتي، واغتصابها خصوصياتي، وتشويهها لعلاقتي بالكتابة، رغم محاولاتي الجادة بعدم مضايقتها، أو الانفراد بسلى أمامها عندما نتحدث في تفاصيل كثيرة تعنينا بشكل خاص، أو تمس الوسط المحيط بنا من جيران ومدرسة وصديقات.

أعلم جيداً أن أمي تمارس ليلاً هواية عجيبة في تفتيش ما خلف الأبواب المنزوعة المفاتيح، وأجد لها ألف مبرر! تماماً مثل كل الأمهات اللواتي يجدن حججاً كثيرة لمثل هذه الأفعال!... ربما كان عدم تمكنها من القراءة شأنها شأن السواد الأعظم من نساء قبل وبعد الثورة أيضاً (لأن نسبة الأمية بين النساء وبعد الخمسة والثلاثين عاماً هي ثمانين بالمائة كما تشير آخر الإحصائيات...) عاملاً جعلني أشعر ببعض الأمان، إضافة إلى الزج ببعض الدفاتر وأحياناً الكتب إلى جوار مفكرتي، كنوع من التمويه أيضاً بعدم أهمية أحدها.

تعلم أنني أحب القراءة، وأحب الحفاظ على كتبي وأشيائي أمام همجية بعض أشقائي وعدم احترامهم لما أبذله من جهد في تجميع جزء كبير من مصروفي اليومي والإنفاق على الكتب والمجلات الأسبوعية (الحصيلة الآن هي أربع كراتين من الحجم الكبير لهذه المجلات، ومكتبة ابتلعت نصف غرفة الجلوس)، لكني لم أجد لها مبرراً أبدا لفعلتها (شقيقتي)، ولا لخيانتها للثقة التي سعت لها أمي بنزع المفاتيح، الذي شمل حتى غرف النوم، وتم استثناء باب حجرتها الخاصة وباب الحمام " بأُكرة " صغيرة يمكنها أن تنفتح إذا تم الضغط قليلاً على الباب من الخارج.

ما يحيرني - حتى الآن - هو النافذة الزجاجية التي تتوسط حائط الممر المؤدي للحمام، والتي يُمّكنك الوقوف على كرسي برؤية كل ما يدور داخله، هل كان وجودها أيضاً متعمداً من أمي؟ لإشباع هوايتها، والقضاء على أي تفكير سيئ من قِبل أولادها! وما هو التفكير السيئ الذي قصدته؟ ربما لذلك لم أرفع نظري يوماً إلى هذه النافذة! رغم اعترافات أشقائي برؤية شبح يظهر منها، بالذات عند تدخين السجائر في بداية مرحلة مراهقة الأولاد، وبعثرة الأيدي باكتشاف الجديد والمثير في خبايا الجسد!

رغبتي في الصراخ وربما البكاء، والذي تبع جملتها تلك: "أمي لا تعرفك على حقيقتك! أنا أعرفك! لقد قرأتها، مفكرتك الزرقاء" كان سببه الرئيسي، تعديها أيضاً على ما كتبته من أسرار صديقاتي السبع، كوننا "شلة" يحسدها باقي البنات في الصف، بل المدرسة بأكملها. انسجام في الأفكار، وتناغم في التصرفات،

وتألق في التعامل مع الآخرين. إضافة إلى التميز والتفوق الدراسي...

ننتظر "الاستراحة" بفارغ الصبر لأننا سنحكي فيها أحداث الصباح والقدوم إلى المدرسة، وننتظر انتهاء اليوم الدراسي لأن هناك ما يتوجب علينا القيام به، هناك من ينتظر ابتسامة، أو سلاماً، أو حتى نظرة، هناك أولاد جيران، ومعجبون يتناثرون من حولنا، يدورون في فلكنا، يرافقوننا حتى المنازل، دون كلام.

هناك مشاعر حرصت على كتابتها في مفكرة يومياتي الزرقاء. هناك ارتباكات تساءلنا عنها طويلاً، ونبض حِرنا في تفسيره، وارتعاشات تداهمنا لأول مرة لم نخجل من البوح بها، تماماً كما لم أخجل من كتابتها... إضافة إلى كتابة أسرار هوايتي المفضلة جداً، الخاصة جداً، والسرية جداً، تنبؤاتي المستقبلية لكل منا، هواية رسم أحداث قادمة أعتمد فيها على شدة غروري في معرفتهن تمام المعرفة، ومما زاد وضاعف في هذا الغرور هو أن معظم هذه التنبؤات قد تحققت، بعد أن أصبح لكل واحدة منا مشروعها الخاص، ومن ثم حياتها الخاصة. (أبرزها إنتهاء الحياة الزوجية لإحدانا بالطلاق، توقعت أن أكون أنا ولم يحدث! وكانت هناء خارج توقعاتي!).

عانيت بعدها من مرض الخوف من الكتابة في الأشياء الخاصة، لاستحالة توقفي عن الكتابة بالطبع، واكتفيت من يومها بالرموز والإشارات، خوفاً وتحسباً وتوقعاً لشيء عارض كذلك الذي حدث. ربما من هنا بدأ تفكيري بالكتابة يأخذ منحى آخر، بعيداً عن اليوميات الفاضحة، الملغومة بالأسرار، القابلة للتفجير في أي وقت، بعيداً عن (كان النهار مشرقاً حال استيقاظي باكراً

اليوم، ثم... و... و... و...) إلى (أطفأت ضوء الغرفة، وتحت فراشي الوثير رحت في نوم عميق).

حتى عندما تجرأت وقررت أن أخرج بعض ما حوته مفكرتي الزرقاء على هيئة قصص قابلة للنشر، بعد ذلك بفترة، اخترت أن تكون تحت اسم مستعار. أذكره جيداً "مجدولين صنعاء"، اخترته كنوع من العناد لمدرس التربية الدينية الذي كشفني في نهاية المرحلة الإعدادية، وأنا مطأطأة الرأس على طاولة الفصل أقرأها، الرواية الرائعة للمنفلوطي "مجدولين" والتي لم يكتف المدرس بتقطيعها أمام عيني، عِبرة لباقي الطالبات، بل قذفها من باب الفصل، واستمتع بقية الحصة في الرد على إجابات المارة من المدرسين عنها وعن ضبطه لي متلبسة بالقراءة!.

عانيت أيضاً من كل ما هو مغلق، لا أحب الأدراج المغلقة، النوافذ المغلقة، الأبواب المغلقة، أكره استخدام المفاتيح، حتى عندما احتجت إلى درج خاص بي، سارعت إلى نزع مفاتيحه منه حال وصول مكتبي أنا وسلى من لدى النجار بعد الانتهاء من تصليح أدراجه وتجديد "الفورميكا" الخاصة به، قبل أن تنقض عليها أمي التي رمقتني بنظرات أعرف معناها جيداً، لكني سارعت بالتعليل لها بشدة حاجتي إلى حفظ أشياء يعبث بها الصغار أشقائي أثناء غيابي، مستغلين عدم وجودي باستخدام الأقلام والألوان والمماحي الخاصة بي بشكل سيء.

لم تقتنع كثيراً لكنها سمحت لي بالاحتفاظ بالمفتاح، لم أستخدمه بشكل دائم لأن حادث المفكرة علم الجميع عدم التدخل في خصوصيات الآخرين. ولأن أمي لا تحب

تمييز أحد من أبنائها، سلّمت أيضاً سلى مفتاح الدرج الآخر!

لم تكن تعنيني كثيراً رسائل إعجاب ابن الجيران رغم أن بعضها كان شعراً مرهف الإحساس! بدأت معه التفكير، والتأمل، والانزواء مع ذاتي كثيراً، وكان هو كشخص، كحبيب، كزوج، آخِر ما أفكر به أو أوليه أي اهتمام، لا أدري لماذا! لكن هذا لا يمنع احتفاظي في الدرج ببعض منها. تجاهلت الرد عليها إلى أن شعر باليأس، وتوقف نهائياً عن تسريبها بين أوراق الكتب التي كان يطلب استعارتها مني، وتتجشم شقيقته الصغرى عناء السفر بين منزلهم في طرف الحارة، ومنزلنا في طرفها الآخر.

تماماً كما لم تكن تعنيني رسائل تحت القدم (هكذا أُسميها) التي كان يلقيها أيضاً معجبو الزقاق المؤدي إلى المدرسة الثانوية من جهة منزلنا. وكنت أحرص على التقاطها، لا لشيء إلا لتعودي مع صديقاتي، على أن يكون الزقاق مليئاً بأنفاسهم، بعطورهم الصبيانية النفاذة التي تقلب المعدة وتشعرك بغثيان لو تجاوزت شمها بعمق! بجلجلة ضحكاتهم وتعليقاتهم في أركانه، التي لم يفز أحداها حتى بابتسامة أو لفتة من أي منا. لصرامة خطواتنا العسكرية و "زرة" وجوهنا، واستقامة نظراتنا، حتى لا يفسر أحدهم أنه هو المعني بها!...

كم أقدس تخليد لحظات التحول الخاصة بي، أصبح الأمر بعد ذلك نوع من التوثيق، في المفكرات الكثيرة التي تتالت بعد ذلك. مفكرة خاصة بكل عام. أحداث يستهويني التماهي في إعادة صياغتها على الورق، والتمتع بقراءتها في أوقات تنقذني من أي شعور بالحزن

أو الملل. أجدد بها طاقتي لاستقبال المزيد من أحداث الحياة التي ليست جميعها كما يتمنى المرء أو يخطط لها!...

شعرت بعد ذلك بالغيرة من الدُرج، بل والحسد منه، تمتع بكل ما افتقده وأبحث عنه. محتوياته تزداد يوماً بعد يوم، تنعم بدفء ظلمته، وبهدوء أعماقه. قسمته على صغره إلى ثلاثة أقسام، الثلث الأول رسائل خاصة جداً باللون الأخضر، تواريخها متتابعة تغمرني فرحة لا حدود لها عند زيادتها، كانت ضئيلة جداً مقارنة بما أكتبه عنها وعن إحساسي بها، يتم إخراجها في اليوم مرتين، صباحاً، ومساء. دون كلل أو ملل إنتابني ولو لحظة واحدة. رسائل خاصة لتجربة عمري بمتناقضاتها المذهلة التي لا أعرف حتى اللحظة فيما إذا كانت هي سبب سعادتي أم تعاستي!...

ثلث الدرج الآخر حوى رسائل و بطاقات معايدة صديقاتي. مناقشة مواضيع مختلفة بالرسائل رغم وجودنا في ذات الفصل، وفي ثلاث طاولات متتابعة، ("شلة الأنس" على قول مدرس اللغة العربية)...

الثلث الأخير، كان في مقدمة الدرج، تستقبلني عند فتحه، مرحِبة وبابتسامة ساحرة! أقلام كثيرة متفاوتة الطول واللون والنوع، تقريباً لم أكن استغني عن أي منها (فيما عدا حوادث الفقد الخارجة عن إرادتي) لم أكن "مبعسسة"[3] على قول أمي لكني كنت أتلذذ بذكرى شرائها ومرات استخدامها، وتصليح أعطالها!...

---

[3]مهتمة بالتفاصيل الصغيرة.

هكذا صرت بعد انقضاء هذه الفترة الطويلة مصابة بداء الخوف من الكتابة، إلا أنني أدين لشقيقتي الكبرى بالفضل في هدايتي للتفكير بطريقة أخرى! لكتابة اليوميات، نعم طريقة أخرى! أصبحت اكتب يومياتي بمنتهى الحرية، وأضع المفكرة الزرقاء في أي مكان ولا أحتاج إلى مفاتيح درج أخفيها في أعماقه، ولا إلى ملابس داخلية أموه بها عنها، وعن محتواها، إنها باختصار طريقة خاصة بي تفننت فيها، لغة جديدة أتقنتها حد الغرور، وأشعر بالفخر حيال ما أنجزت، مفكرة زرقاء، أفتحها متى أشاء، أرى، استنشق، المس، اسمع، أتذوق عالمي الخاص، وبين دفتيها، الغلاف السميك لوجهيها، يبدو كل شيء ولا شيء، تشعر أنها أنا، تماماً أنا، ولا تشعر!...

اعتذرت لها شقيقتي، ممتنة لفعلها المشين! مَدِينة لفضولها الآثم، ورغم رفضها عن سابق إصرار وتعمد لاعتذاري، بقولها: "إنها مناوراتك لتكونين الأفضل دائماً" إلا أنني أقسمت أنها لم تكن مناورة لأكون الأفضل كما اعتقدت وكما درجت عادتها دائماً على سوء الظن بالجميع حولها، ولكني أشفقت عليها، لم أشأ أن أكون عبئا عليها وهما يضاف إلى همومها في عدم قدرتها وبسبب أنانيتها الشديدة على تكوين علاقات وصداقات حقيقية وحميمة. رغم نصائح أمي المتكررة، المُحذِرة لأفعالها السباقة التوقع، الواضحة المعنى، الشديدة اللهجة أحياناً، لها، دون فائدة، دون فائدة!.

لم أكن لأهتم بقبول اعتذاري من عدمه فجميل صنيعها وان لم تقصده، جعلني أقدم لها مئات الإعتذارات في أعماقي وربما أكثر لو تطلب الأمر!.

أصبح للمفكرات الزرقاء منذ تلك الحادثة تاريخ. قبل وبعد! صنفتها وأسعدني هذا التصنيف جداً!. كيف لا! وهي أمامي الآن قد تجاوز عددها الثلاثين. لبعض منها، قبل ما فعلته شقيقتي وبعدها ذكريات جميلة، رائعة التفاصيل، عذبة التخيل، أقضي بين أعطافها أمتع لحظات الحنين إلى تذكر الماضي والاستمتاع به وكأنه حدث للتو!.

تتمتع مفكرات التحول بنصيب الأسد في حبي لها وتكراري واستمتاعي اللا معقول بقراءتها!. من ضمنها، المفكرة الأولى، وأنا لم أتجاوز الحادية عشرة بعد. أول مفكرة، أخطاؤها الإملائية، وعباراتها الركيكة، وسوء الخط فيها، يصيبني بنوبة ضحك كلما فتحتها. أبجديات كثيرة في حياتي احتضنتها، (ربما لو رزقت بأطفال لكانت أول شيء أقرأه لهم، وأعلمهم إياه!...) كَتبت ببراءة متناهية عن كل مشاهداتي اليومية، في المدرسة والبيت، عن حبي ل "علي تنجرة" الشخصية الفكاهية والمشهورة في البرنامج التلفزيوني لبابا عبد الرحمن مطهر "ركن الأطفال" وتصرفي عكس السلوكيات السيئة التي كان يقوم بها. ليس هذا فحسب، تقمص شخصيته ودحرجة نصائحه وحِكمه لكل المحيطين بي، أصبح أمراً يمتعني، مثلاً: أشقائي، صديقاتي، جيراني، يجب عليهم عدم شراء "الغسوس[4]" إلا إذا كان بائعه

[4]بازلاء مطبوخة بطريقة خاصة، يتجول بائعها بين الحواري لبيعها للأطفال.

نظيف المظهر!. التفوق الدراسي، طاعة الوالدين، حب الناس، احترام الكبير والعطف على الصغير، الحفاظ على نظافة أجسامنا وبيوتنا وشارعنا...

نصائح رددتها كثيراً طيلة فترة استمرار البرنامج. لو يعلم "على تنجرة" كم ساعد على تهذيب سلوكي! وسلوك المحيطين بي، لاستمر "بابا عبد الرحمن مطهر" بدماثة خلقه وروعة أدائه، وبتأثيره على الأطفال في برنامجه إلى ما لا نهاية. ولكانت صنعاء ومنذ أوائل السبعينيات أنظف عاصمة عربية... ليس هذا فحسب بل إن استمراره أيضاً في رئاسة تحرير مجلة "الهدهد" بداية الثمانينيات، المجلة التي فرح بها الأطفال وتهافتوا لاقتنائها وعلمتهم أشياء كثيرة أهمها استخدام عقولهم في كل شيء، وان كلمة "لماذا" هي طريق المستقبل وكشف أغواره! إضافة إلى تعليمهم حب المشاركة والتفاعل مع صفحاتها وشخصياتها أولا، ومع المحيطين بهم ثانياً.

للأسف توقف البرنامج والمجلة، كما توقف أيضاً زراعة الأشجار على جوانب الطرقات! وماتت أشجار الحدائق العامة، واختفت ألعابها فجأة و بدون سبب، وبلا سابق إنذار. الحدائق التي شهدت فيها أروع أيام طفولتي، ولم تزد حديقة واحدة منذ الثلث الأخير للسبعينيات، وكأن بها مس شيطاني و العياذ بالله، يمنع تكاثرها، ويصر على إصابتها بالعقم مدى الحياة!!!...

الشيء الوحيد الذي كان يتكاثر، يزيد وبمعدل سنوي طبيعي هو مفكراتي. مفكرات، مليئة ومكتظة بالأحلام

والأمنيات، تضاف إلى سابقاتها، عاماً بعد عام وبهدوء منقطع النظير!.

مفكرة الاكتشافات كما اسميها، كانت من ضمن مفكرات بعد حادثة السطو على مفكرتي من قبل شقيقتي! ومن أكثرهن معزة على قلبي، لا أمَّل قراءتها حتى الآن، على العكس تماماً، أجدها مسلية تبعث في نفسي ذكريات رائعة، خالدة. أستنشق الياسمين المنبعث من أوراقها بشغف، وأضمها إلى صدري بحب كلما انتهيت منها، وأظل مبتسمة طيلة نهاري، وشريط ما بأعماقها يمر أمامي، أشعُر بنبضها، أكاد المسه، وكأنه حدث اليوم، رغم مرور أكثر من عشرين عاما علي كتابتها!...

ما قبلها وحتى كتابتها كان عالمي الخاص، عالم البيت والمدرسة وإطار ضيق من الأهل والجيران والصديقات. عالم من شغف القراءة المتنوعة في كل شيء والسؤال عن كل شيء والبحث عن إجابات عديدة من المحيطين بي، أكثرهم كان مدرس اللغة العربية، الذي كان يستقبل اسئلتى بكل استغراب وإعجاب، تدل عليه كلماته ونظراته في ذات الوقت! أطلب منه روايات وكتبا لم يتخيل أن تطلبها فتاة في عمري كما كان يقول!...

أذكر دهشته وأنا اطلب منه في نهاية المرحلة الإعدادية رواية "مائة عام من العزلة" لغابرييل غارسيا ماركيز، بعد حصوله على جائزة نوبل بفترة بسيطة. وكتابات جمال الدين الأفغاني "الله، العالم، الإنسان" في بدايات المرحلة الثانوية، بعد تأثري الشديد بسيرة حياته

في أحد المسلسلات التلفزيونية!. إضافة إلى كتب المنفلوطي والعقاد وإبراهيم المازني.

أتذكر يوماً فاجأته بكتاب "فئران الأنابيب" لميشال كليرك، الرواية السياسية التي صدرت باللغة الفرنسية تحت اسم "بخشيش" و تناول فيها المؤلف الصراع الدامي بين تجار الأسلحة و عالم النفط بصفقاته وملوكه في العالم العربي بطريقة مذهلة وبرموز مشوقة ومثيرة للفضول والبحث!... عندها خبط يده على جبهته تعبيراً على اندهاشه وهو يشكرني. لأن الكتاب كان تقريباً ممنوعاً في الدول العربية في تلك الفترة. وأحضره لي والد أحدى صديقاتي بعد إلحاحي في طلبه أثناء أحدى سفرياته.

وجدت بعدها متنفساً في شراء ما كنت أريده من كتب في المعارض السنوية للكتاب التي كانت تقوم بها جامعة صنعاء. اقتنيت منها كل ما قرأته عن طريق الاستعارة في السابق من روايات نجيب محفوظ، إحسان عبد القدوس، يوسف السباعي، يحي حقي، محمد عبد الحليم عبدا لله...

كنت أعشق أيضاً قراءة الأدب العالمي المترجم، أعيش المكان والشخصيات المغايرة تماماً للروايات العربية، انسج لها في خيالي صور عدة تبهجني وكأني أعيش معها. اقتنيت أعمال فكتور هيجو، اسكندر دوماس، تشارلز ديكنز، توليستوي، زيفاكو، غوركي، سيمون دي بفوار، سارتر، فلوبير، بلزاك، سومرست موم، كامو، شارلوت وأميلي برونتي!... وغيرها من

"سلسلة الناجحون". أذهلتني سيرة غاندي، كارل ماركس، لويس باستور، مدام كوري، اينشتاين، دافنشي، هيلين كيلر، أديسون...

للقراءات الأولى متعة لا تضاهيها متعة، تماماً كما للاكتشافات لذة ليس لها تفسير!... حدث لي هذا مع أنيس منصور في كتابه "حول العالم في مائتين يوم" أول كتاب اشتريه من مصروف التوفير الخاص بي، ورواية الطيب صالح "موسم الهجرة للشمال" أول رواية، اقرأها بذهول لذيذ وانحني لها حتى اللحظة إعجابا وتقديرا!...

أما عندما سألته عن بيتهوفن وسيمفونياته تحديداً سبب تسمية السيمفونية التاسعة بالفَرِحة؟ أذهلني عندما اهدانيها اليوم التالي طالبا منى معرفة السبب بنفسي بعد سماعها!!! ليصبح بعدها للسيمفونيات ولَّه وعشق، يتجدد كلما عاودت سماعها بعد انقطاع. سيمفونيات، بيتهوفن، موزارت، تشايكوفسكي، باخ، شتراوس، فيفالدي!... إنها العالم الذي تغمض فيه عيناك وتحلق نشوة!...

هذا هو العالم الذي سبق مفكرة الاكتشافات ويحلو لي أن اسميه الآن "العالم الوردي" لأن ما تلاه لم يكن له سوى لون واحد ووحيد هو الأسود، الأسود، الأسود!...

بدأت مفكرة الاكتشافات من رحلة صيف إلى دمشق!... لماذا الإكتشافات؟ لأنها لم تكن رحلة عادية! ورغم رحلتين سابقتين إلى ذات المدينة، إلا أن هذه كانت مختلفة تماماً. بعد أن رفض أبى مع سبق الإصرار والترصد أن لا أسافر لأكمل تعليمي بعد الثانوية خارج الوطن، وقذفه لتلك العبارة القاسية في وجهي، (ما فيش سفر للبنات وحدهن حتى لو للدراسة!!!) وعدم مبالاته

باحتجاجي السلمي وامتناعي عن الأكل لمدة يومين. أشفقت بعدها على دموع أمي، وخفضت رأسي لتمر الريح وربما الزوبعة بسلام. (قررت بعدها أن لا أخفض رأسي لأعتى الزوابع ما دام لقراري بعض الصواب!...) قرر أن يكافئني بعد حصولي على مجموع عال، بالسفر لقضاء الإجازة في دمشق، بصحبة سلى، رغم انه لم يكن دوري في السفر. بعد أن اتخذ قرار سفر اثنين منا كل عام، لما قد يكلفه سفرنا جميعا من تكاليف باهظة!.

يتحول أبي في السفر إلى شخص مختلف تماماً، بعيداً عن دوامة العمل وتوفير متطلبات الحياة. يصبح أكثر إنصاتاً، يحكي الكثير عن ذكريات طفولته ومعاناته، بهدف تعليمنا العِبر منها. يدحرج لنا من خلالها دروساً في الحياة والتعامل مع المدن والناس. لا يهتم بإعطائنا بطاقة الفندق وجواز السفر عند الخروج، وتأكيد ضرورة قراءة إشارات واتجاهات الطرق فحسب! لكن ينصب اهتمامه وهمه الأكبر في دحرجة طرق الاعتماد على النفس، ومجابهة الحياة بكل صعابها. مَثَله الخالد و الدائم التكرار على لسانه أن صعوبات ومشاكل الحياة التي قد تواجهنا هي "أذنا الجمل" وان هناك المزيد والغير متوقع لابد من الاستعداد له كما نتوقع تماماً رؤية باقي جسم الجمل "ما قد ابسرتوا إلا أذنا الجمل!..."

بعد زواج بناته الخمس وحتى يحثهن على الصبر وحل مشاكلهن بروية وبدون تهور قد يهدد أساس بيوتهن ويؤذي أولادهن، لم يخرج أيضاً عن نطاق الجَمَل، باعتبار الجَمل، المثال الجيد للصبر وقوة التحمل في كل شيء. متخذا من أمثال على ابن زايد (أشهر حكماء اليمن

الشعبيين حيث يطلق الناس على مقولاته الشعرية القصيرة اسم "الأحكام" لأنها لديهم بمثابة الفتاوى الصحيحة في كل ما تتناوله من شؤون الحياة) تأكيداً على قناعاته: "غبني على من قد أعول، مثل الجَمَل لقد بَرَّك تحمل"!...

لا يؤثر على أبي أيضاً في السفر انقطاعه عن تناول القات. وهذا حال كل اليمنيين عند سفرهم، يتحول شغلهم الشاغل إلى الاستمتاع بالحياة و بزيارة الأماكن السياحية والحدائق والمتنزهات! لا يفكرون في القات مطلقا ولا يؤثر على "الموالعة"[5] إلا بارتفاع حرارة باطن القدم ليوم أو اثنين، أو "برازم"[6] ليلة أو ليلتين. لكن الأغلبية لا يلقى للموضوع بالاً!.

الغريب والمثير للدهشة، هو حديثهم وتعليقاتهم عن القات في رحلة العودة إلى اليمن، تفكيرهم فيه وهم معلقون في الجو، بين السماء والأرض، على متن طائرة لا يعرفون فيما إذا كانت ستهبط بهم بأمان أم لا!!!

القات الذي يصبح التفكير فيه شغلهم الشاغل طوال اليوم، وكل شيء مقرون به، بدءاً بالصباح الذي تبحث فيه عن وجه مبتسم، أو منفرج الأسارير، دون فائدة نتيجة لعدم النوم الجيد والسهر الذي يسببه القات: يصحو المخزن وحالته عصبية جداً، مقطب الحاجبين، "مزرور" الوجه. تبدأ أساريره في الانفراج قيد أنملة بعد تناول الفطور، ومن ثم نسيان سهر البارحة و "نتاف

---

[5] الذين يتناولون القات بشكل يومي.
[6] كوابيس أثناء النوم.

شعر ذقنه" و "ملخخة أسنانه" حتى بزوغ الفجر، ليفكر في اليوم الجديد وكأن ما حدث بالأمس لم يكن!...

يجلس على كرسي الوظيفة وكأن به شوك يضطره للقيام منه بمعدل كل ربع ساعة والطواف حول المكاتب الأخرى. أما المراجعين وأصحاب المصالح فعليهم البحث عنه أو انتظاره و "من قرح يقرح". يعود في الظهيرة إلى كرسيه من آخر جولة له بين المكاتب و "البوفية"، مهموماً يفكر في قات اليوم الذي يجب تدبير فلوسه ولو من "الجن"! باحثاً عن طريقة تمكنه من الخروج المبكر ليفوز بنوعية قات جيدة، وغداء أكثر جودة، تكون الـ "سلتة"[7] عنصر رئيسي فيه ليشعر بحرارة القات! ولا يهم إذا كان في أحد المطاعم الشعبية التي تتخذ أرصفة الشوارع كأنها طاولات للأكل، ويرتادها خليط من الناس، أغنياء وفقراء، ويتساوى على أرصفتها تلك، أصحاب السيارات الفارهة، وأصحاب الدراجات النارية.

هذا ما كنت أجادل أبي فيه. مستغله عدم تناوله للقات أثناء مدة السفر التي لم تكن تتجاوز الثلاثة أسابيع، متحمسة جداً، ومؤكدة أني لن أتناوله أبداً ولن يتناوله أولادي أيضاً، وبذلك أساهم في القضاء عليه...

---

[7] طبق غداء رئيسي مكون من الخضار أو اللحمة المفرومة أو قطع اللحم الصغيرة في المرق مضافاً إليها الحلبة على الطريقة اليمنية.

بعد استمتاعي معه ومع سلى، واكتشافي لفوائد السفر الكثيرة، التي تجاوزت الفوائد الخمسة للإمام الشافعي بكثير والتي كان أبي دائم الترديد لها حتى حفظتها أنا وسلى عن ظهر قلب:

تغربْ عن الأوطان في طلب العلا

وسافرْ ففي الأسفار خمسُ فوائــد

تفـــرُّج هــــمٍّ واكتسابُ معيشــــةٍ

وعلمٌ وآدابٌ وصحبـــةُ مــاجـــدِ

يعجبه حماسي ينصت مبتسماً لكل ما أقوله. وإن علق وشعر بضرورة ذلك يقول "إن شاء الله"... وكأني به يشعر بأنها حماسة مؤقتة يتطلبها سني في ذلك الوقت الذي لم يتعد الثامنة عشرة. والقابلة للتغيير والتبديل عشرات وربما مئات المرات!

عدنا ثلاثتنا من دمشق، ونحن أكثر حيوية ونشاطاً، خاصة أنا! أمامي أول عام جامعي. اخترت دراسة الفلسفة. تجربة جديدة، عالم مختلف، وأول خطوة في مشوار طموحي لتحقيق كل ما حلمت به من أجل مستقبلي!.

سلى أيضاً كان أمامها عاماً شاقاً بعد أن أصبحت الثانوية العامة رعباً مسيطراً على عقول الطلبة، وضرورة الحصول على مجموع عالٍ هاجس يفقدهم التوازن عاماً كاملاً!.

أتذكرها جيداً الجملة التي أنهيت بها مفكرة الاكتشافات: "كم أنا متشوقة للجامعة ولكتابة يومياتها" قبل أن أرصها إلى جانب ما سبقها.

لم أكن أعلم بأنها الفترة التي ستجمع كل متناقضات العالم وتلقيها أمامي دفعة واحدة... ألم! حزن! فرح! نجاح! فشل! حب! كره! إرادة واستسلام!!!...

ربما بدأ ما أراد أبي تعليمه لي من فنون التعامل مع الحياة وخوض غمارها، بسرعة فائقة لم أتوقعها!.

في اللا توقع

لماذا اكتب كلَ هذا الآن؟ لماذا هذه الرغبة الشديدة للكتابة، والتدفق الغزير لكل هذا السيل من الذكريات؟ ذكرياتي: آه من ذكرياتي! ليست جميعها بحلاوة ما مضي! ليست الفضاء الرحب الذي يستقبل تحليقي فيه بنشوة غامرة، أو الركن الذي ألوذ إليه هاربة من كدر العيش ومنغصات الحياة!... ليست الألق الذي يفيض من عيني كلما قفزت إليها صورة شقية، أو كلمة شهية،

أتمنى لو تطبق لذتها على أوصالي وتقذف بي في سعادتها المتجددة!...

ذكرياتي، هناك ما يثقل كاهلي منها! ألم! كلما حاولت مغافلته وإلقاءه من على ظهري والفرار بعيداً عنه... أجده يشدني إليه، يصهرني في أتونة، يعيد تشكيل وجعي مرات ومرات!... ألم، أدمنته، استسلمت له، خضوع أبدى أستلذ فيه ممارسة طقوس البكاء والنحيب في أجواء شديدة الرومانسية. ألم فشلت كل محاولاتي لإنقاذي من براثنه والمضي قدماً!...

ألم، ما حدث "لنادر" كان مخلصا في قوته، متألقاً في أحداثه. مقرفاً في تفاصيله!... تحديداً بعد انتهاء عامي الأول في الجامعة، في ذلك الصيف البغيض للعام 1988...

"نادر" لو يعلم كم اشتقت إليه!. إلى احتضانه، إلى تقبيله، إلى الجلوس أمامه والتماهي في إنصاته المدهش. أرغب في الحديث إليه طويلاً، في "الفضفضة" بكل متغيراتي الطارئة. أود لو يشاركنيها، لو يحدثني بما يجب على فعله، تماماً كما فعل أول مرة. تماماً كما شهد معي تفاصيل خفقان النبض الأول، الدهشة الأولى، الحب الأول!...

لا أجده أمامي، واستحالة أن تتحقق هذه الأمنية مهما تضرعت إلى الله وابتهلت، لأنه باختصار إستعاد أمانته!

أخذ "نادر" من بيننا فجأة، لم نودعه، إلا وهو مسجى أمامنا في بياض كفنه!.

إنه الموت، تعتقد أنه بعيد عنك وهو أقرب إليك مما تظن. حقيقته الساطعة كالشمس، حتميته المؤكدة، حدوثه الذي لا مفر منه. سماعك به طوال اليوم عشرات المرات، من نشرات الأخبار، من الأصدقاء، من الجيران!... كل هذا يسرب إليك شعوراً بحدوثه للجميع، عداك، وعدى كل من تحب، إلى أن تحدث الطامة، إلى أن تحدث الكارثة!...

لم يمر ببال أسرتي الدافئة، أن تفقد أحد أعضائها، لم يتبادر إلى ذهن أشقائي المتحابين أن يكون أحدهم، لم تتوقع أمي وأبي المنتظران لجني ثمار تعبيهما، بروعة مستقبلنا، والتمتع بنكهة سعادتنا... سماعاً لخبر مؤلم، محزن، مدمر، كهذا!...

مصيبة، فقد أمامها الجميع عقله، توازنه، شجاعته، لساعات مرت كأنها دهر!... حتى البارحة كان معنا، بيننا، "يزبج" مع هذا بنكتِه المضحكة، و "يدكم" تلك لأنها لم تضحك "مبرطمة"، يحتضن أمي قبل تناول الغداء طالباً منها زيادة "المرق" ليشعر بحرارة "القات" الذي سيذهب لإحضاره عقب الغداء مباشرة من "وادي ظهر"، المنطقة الواقعة شمال غرب صنعاء، المتباهية بتاريخية مبنى "دار الحجر" القصر المتوحد مع صخرة هائلة من سفحها حتى قمتها، لوحة فنية فريدة، كبرياء وشموخ لقصر يحكي جزءاً من تاريخ دولة، كان يقضي

فيها الإمام وأسرته فترة الخريف قبل قيام ثورة 26 سبتمبر. مستمتعين بطول أغصان قاتها، ولذة فاكهة سفرجلها، إضافة إلى تمتعهم بخير بعض المناطق المحيطة بصنعاء مثل عنب "الروضة" و برقوق "حدة".

"اليوم خميس يا أمه، هيا أيحين عتزوجيني!؟" يقهقه الجميع على مائدة الطعام، لعبارة نادر. ترد عليه أمي: "لوما يطلع لك شنب" يرفع أحدى حاجبيه (حركته المميزة جداً عندما يستنكر أمراً لثواني) قبل أن يرد عليها: "أربعة وعشرين سنة، مش ذنبي لو الشنب خفيف، المهم إن أنا رجال يا أمه، رجاال"!!!.

قام بجميع طقوس الاستعداد ليوم الخميس. أنبل طقوس لثقافة قات الخميس، طقوس تبدو أمامها الطقوس الأخرى لاستقباله والتماهي في ساعاته فائض، لا معنى له. فأمامه كثير من الواجبات الجامعية، أوشك موعد تسليم المشاريع الرائعة التي يقوم بتصميمها، انتهي من تصحيحها وتعديلها ومراجعتها. بعد عام سيكون مهندساً معمارياً ناجحاً، متألقاً، ألمعياً. كل الشواهد تدل على ذلك.

خرج مرتدياً قميصه الأبيض، "عسيبه[8]" الرائع الجمال. (اشترى أبي نصله، وعمر نادر عامان - حال معظم أهل صنعاء - ليصبح له قيمة عالية إذا ما كبر، وأتقنت خالتي من شدة حبها له وبمهارة تطريز حزامه الذهبي، المميز لمنطقتنا. للأسف، لا تبعد كثيراً عن وادي ظهر. وادي الموت كما اسميه إلى الآن) رفض ارتداء الجاكت بحجة حرارة الظهيرة ومضى...

[8]ببعض اللهجات اليمنية هي الجنبية التي يرتديها اليمنيون.

لم أضحك كعادتي عند توديعه، تزايدت ضربات قلبي، وخنقتني غصة مُرة في حلقي، وكأني بسحابة شديدة السواد مرت في ذات اللحظة التي توارى فيها عن ناظري. محدِثة نفسي: "خير اللهم اجعله خير"!.

يعشق قيادة السيارات، يسابق الريح حال خروجه من صنعاء إلى أي مكان. حريف جداً يسيطر على الطريق والسيارة بتقنية مذهلة. كان صعباً عليه وبعد هذا الحب أن يتركها لهم بسهولة. حتى لو اشهروا عليه أسلحتهم القذرة قطاع الطرق. مطالبهم واضحة "السيارة والجنبية" لم ينصع لهم، رفض، انطلق بالسيارة، تبعوه، مطاردة على مرأى ومسمع الجميع. مسخ عجيب من بشر طلت رؤسهم القبيحة من نوافذ المنازل، انتصبت اجسادهم المعوقة على قمم الجبال، جحظت عيونهم الغادرة، تسمرت، ترقب ما يدور بمنتهى الفخر الدنيء!... اخرجوا أيديهم الآثمة من نوافذ السيارة، محاولة سافرة لإطلاق الرصاص على عجلات القيادة، محاولة لتوقيفها بعد أن أهانهم بما فعل، أهانهم بدفاعه عن نفسه وعن سيارته، أهانهم الكلاب، الأوغاد!.

من سوء حظه، وحظنا. من سوء حظ حارته التي يسكنها وتشهد بسمو روحه وكريم خُلقه. من سوء حظ الكلية التي يدرس فيها، ويعرفه الجميع لحلاوة تعامله وتقديم خدماته. من سوء حظ الفتاة الجميلة، الرقيقة (حبه العظيم)، أن تنتهي مشاريع المستقبل الجميل والزواج المنتظر، باستقرار الرصاصة في مؤخرة رأسه، صعود بسيط لمرتفع ابسط بالسيارة، أنهى كل شيء!...

ما حدث كان خارج عن حسابات قطاع الطرق، عن حسابات العالم بأسره!... قصد المجرمون قطاع الطرق

السفلة الإطار، ارتفعت السيارة، تخطت تله بسيطة، الرصاص لا يخطئ، لا يمهل، ينهي كل شيء جميل في الحال!.

كم أشفقت على أبي في لحظة لا وعي قاسية وهو يتجه إلى خزانته، لينهي حياته برصاصة من مسدسه القابع فيها منذ زمن، لحاقا بابنه الذي شعر أن لا حياة له بدونه!. كم أشفقت على أمي وهي تذرف دموعها مرددة طيلة ثلاثة أيام دون أكل أو شرب حتى تم نقلها إلى المستشفي: "نادر لا!". كم أشفقت على أشقائي وأجساد كل منهم ملقاة في أركان المنزل التي كانت مبعثرة هي الأخرى من حولهم! شديدة الظلمة! غير مصدقين فيما إذا كان ما حدث هو حقيقة، أم كابوس حلم مزعج، أو ربما أحداث فلم "اكشن" أمريكي!. سيتخطى بطله كل الهضاب والتلال وسيل الرصاص المتراشق عليه وينجو سالماً!...

"الحياة تستمر، لا أحد يموت بعد أحد!" الجملة الأثيرة التي اتفق عليها كل المُعزين. الجملة التي التهمتها نظراتنا بصمت. مواقف كهذه لا يكتفي فيها الناس بالصمت. أبلغ، أصدق، أنبل وسيلة للتعبير. ولتكن لهم في شرطتنا المبجلة أسوة حسنة، في عشقها وغرامها بالصمت. اكتفت مرغمة بعد أن تعب أبى ذهاباً وإياباً إلى قسمهم الموقر ليسأل عما أسفرت إليه التحقيقات عن قطاع الطرق!. اضطروا آسفين إلى كسر صمتهم ليستخدموا عبارة مثل سائر الناس، سائر المُعزين "اقفلنا التحقيق، لم نعثر عليهم، نصيبه هكذا، قضاء الله وقدره،

ستسجل القضية ضد مجهول! عظم الله أجركم وعوضكم على الله".

يا للسخرية: الإيمان بالقضاء والقدر الذي داهم قلوبهم وأفواههم فجاءة. يلوكون عبارته لكل أصحاب القضايا المشابهة لقضيتنا وغيرها وغيرها وغيرها!... لكل من ليس لهم حول ولا قوة! وأيضاً لا وساطة لمنصب أحد الأقارب أو المعارف!. عبارة تم استبدالها مؤخراً وبفضل موت ابن أحد الوزراء بنفس الطريقة التي مات بها "نادر" مع فارق أن سيارته انقلبت في منعطف وهو يحاول الفرار، واردته قتيلاً بسبب نزيف داخلي من شدة ارتطام جسده بصخرة فتت كبده، وعجز أمام معالجته أمهر الأطباء!...

هرب قطاع الطرق، لكن الشهود فضحوا كل شيء. كل الجرائم المسكوت عنها، قامت الدنيا ولم تقعد!. أظهرت الشرطة قدرتها الخارقة، التي تدخرها لمثل هذه المواقف المشابهة لمصائب الوزراء وأصحاب النفوذ، في الكشف عنهم والإمساك بهم في اقل من 24 ساعة!...

المثير في القضية، المضحك، وربما المقرف ما توصلت إليه سرعة التحقيقات في القضية، أن أحد قطاع الطرق ابن شيخ!. نعم ابن شيخ!!! يتسلى بأرواح الناس ليقضي على الملل الذي يشعر به. شيخ جاهل، وابن اجهل منه، شيخ عمل المستحيل مع الوزير أبو الفقيد الذي تقبل العزاء في وفاة الشهيد الذي مات غدراً. أربعون يوماً تمتع فيها المعزون بذبائح وولائم موائد عامرة "تفوق الوصف" كما قال الهبارون لها حتى التخمة!...

ما حدث بعد ذلك من وساطات ومهاترات بين الشيخ والوزير كثيرة وكبيرة، امتلأت بها صحف المعارضة، وشذرات منها وتلميحات في الصحف الرسمية، حفاظاً على كرامة الوزير التي أهدرها ابن شيخ بسرقته لسيارة ابنه والقضاء على حياته. فاضت مقايل القات بالنقاش حول القضية، ووصلت المراهنات أشدها على وضع سيناريو للنهاية المرتقبة بين الشيخ والوزير! هل سيتنازل الوزير عن حقه في موت ابنه ويعفو عن ابن الشيخ المتهور؟ هل سيتم حل القضية قبلياً كما جرت عليه العادة؟ هل سـ "يهجر[9]" الشيخ أمام بيت الوزير بألف ثور!، وألف قبيلي! قبل أن يطلب منه مسامحة ابنه العابث على ما فعله في حقه؟...

في الواقع لم يكن ابن الشيخ هو صاحب هذه اللعبة الخطرة. اللعبة المثيرة، التعرض لأصحاب السيارات الفارهة، بعد وقوفها أمام نقطة تفتيش لشرطة وهمية. لعبة إطلاق الرصاص على إطارات السيارات للحصول عليها فيما لو تجرأ أحدهم على الهرب. لم يكن أيضاً صاحب فكرة التسلية والإثارة لحياته المملة التي لم يجد ما يشغلها به غير هذا!. بعد فشله في التعليم أولاً! ولاحقاً في الوظيفة التي فصلت له لتناسب مؤهلاته المعدومة. (لأن الوظيفة المناسبة والملائمة وينتظرها بفارغ الصبر هي أن يكون شيخاً!)...

---

[9] يذبح الجاني أمام منزل المجني عليه ثوراً أو أكثر.

لم يكن هو أبداً، الشيخ الصغير المنتظر السبب في كل هذا! إنهم الأوباش، المخا... الذين غرروا به واستغلوا طيبته أولاد الحرام" السراسرة!"...

كلام مقنع جداً من الشيخ!. ليس أمام الوزير إلا أن يقبله حتى لا تكبر المسألة، وتؤدي إلى فتنة، ونعرة طائفية لا يحمد عقباها بين الدولة والقبيلة. وليس هناك مشكلة مادام الوزير قادراً على إثبات فحولته بطفل آخر احتفالاً بكرسي الوزارة الذي تم تجديد جلوسه عليه!. ومادام الشيخ قادراً على تأديب ابنه بمنح مشيخة القبيلة لأحد أشقائه وما أكثرهم، بعد وفاته. تم التراضي والقبول من جميع الأطراف: "عفى الله عما سلف". هكذا تحل القضايا وإلا فلا!!!

العام الذي تلا فقدان نادر كان من أصعب الأعوام التي مرت علينا جميعاً!... استقبالنا لمناسباته المتعددة: حزينة، كئيبة، باهتة إلا من ذكراه التي كانت طاغية على ما سواها!... عبارات التهاني يشوبها حسرة تنتزع من أعماقنا، ترحيبنا بالزوار بلا ملامح!... عاماً طغى السواد فيه عما سواه، ملابسنا، وجوهنا، دموعنا، ابتساماتنا!...

لم أكف عن طرق باب حجرته ثلاث طرقات ليصحو كل صباح!... يصلني صوته نقياً من خلف الباب (الآن شاقوم، ولو أني ما شبعتش نوم!...)

لم تكف سلى عن إعداد فنجان قهوة ثالث له معنا!...

لم تكف أمي عن التسلل إلى حجرته ليلاً، تحدثه، تحتضن ثيابه، تستنشق رائحتها، رائحته التي تحب، تنتحب بوجع، تئن بصمت!...

حجرته: عام كامل، لم يُحرك فيها ساكناً، طاولة الرسم قابعة في ركنها أمام النافذة الشمالية ليصلها الضوء طيلة النهار. أدواته وألوانه: مبعثرة على أرضيتها. أوراقه الملفوفة: مُنظمة حسب المواد، مُرتبة حسب جدول الدراسة الأسبوعي. صورته: شامخة على رف "الصفيف"[10] المواجه للباب بحجمها الكبير المميز. سريره: لم يعد يستوعب طوله مؤخراً، تحول شكل قدميه الخارجتين منه مسار تعليقات ضاحكة، ساخرة، تطالب بتغييره، لولا حبه وتعلقه الشديد به. خزانة حائطية: تعلو السرير، تحوي كتبه وأوراقه وصوره الخاصة!...

بصعوبة شديدة، عادت المياه إلى مجاريها في منزلنا. عاد كل واحد منا لمواصلة الحياة التي يجب أن تستمر. وإلى الوقوف والسير على أرض لن يوقف أي شيء دورانها!...

---

[10] رف بارز من الجدار.

متواليات

أحبت سلى الهندسة المعمارية من خلال نادر. كانت تساعده في أعمال لا تحتاج إلى تخصص دقيق!. تُحبِر حوائط المساقط الأفقية بعد الانتهاء من رسمها، تنقط ظلال الواجهات للمشاريع التي يصممها. تقص له وتقطع مواد المُجسم الذي سينفذه. تنظف، ترتب، تجهز أوراق التسليم بعد أن ينتهي منها متعباً، منهكاً، ليأخذ قسطاً من الراحة قبل الاستمرار أو الذهاب لكليته!...

لذلك قررت دخول كلية الهندسة، ستدرس الهندسة المعمارية، ورغم ما قد يسببه هذا الاختيار من ألم دائم بسبب تذكر نادر، إلا أن أحداً منا لم يتكلم معها أو يلقي لذلك أهمية مادامت هذه رغبتها!...

العام الأول، أثبتت فيه سلى قدرتها على التميز والتفوق في الدراسة. أثبتت لنا أيضاً أنها قوية وقادرة على الاستمرار، بعد أن كانت اضعف الجميع في تلقي صدمة خبر حادث نادر ولم تفق من هول الصدمة إلا بعد فترة من تناول أدوية مهدئة للأعصاب!... عكسي تماماً أنا القوية التي أحكمت زمام أمرها وأمر عائلتها بقوة

وشجاعة في مواجهة بشاعة الصدمة!... ومع ذلك استقبلت عامي الثاني في قسم الفلسفة بفتور شديد استغربه الجميع! طلبة ومدرسين.

عام اختلفت بدايته كلية عن ما سبقه من نشاط وحيوية ومشاركة!... رغم أني اخترت دراسة الفلسفة عن قناعة تامة. المجال الذي شدني من بداية قراءاتي فيه. عشقته، يفتح أمامي الأبواب لعوالم أخرى، اسأل عنها، أكتشفها، أتوغل في أعماقها، وأتوه في خباياها.... مندهشة تماماً كالمعلم الأول بين فلاسفة اليونان، أرسطو القائل: بأن الفلسفة والعلم جذورهما في الدهشة!...

إنها "علم العلوم" كما أسماها ذلك الفيلسوف كث اللحية الذي اختاره استفتاء دولي قامت به إذاعة ال ب.ب.س في 2004 كأعظم فيلسوف عرفته البشرية منذ الأزل. عالم ابتدأ من إلياذة هوميروس، ملحمة جلجامش، وأساطيرها المبهرة. عالم سقراط وأفلاطون وأرسطو، عالم ابن رشد، الغزالي، ابن سيناء، الفارابي!... عالم كانت، هيجل، راسل، روسو، شوبنهاور، سارتر، فدجنشتاين، نيتشه، فولتير!...

لا أدري إن كانت كثرة قراءاتي في الفلسفة هي التي جعلتني متميزة ومبرزة ومتفاعلة بالنقاش والمشاركة دراسياً في قاعة المحاضرات، أم أن بحثي عن ما وراء السطور، النهم الشديد لتلقي المزيد، الاستفادة القصوى من معلومات المحاضرين، هي السبب!!! خاصة وأن المحاضرين كانوا شديدي الحضور، مميزي الأداء، وافدين من مصر، بعد أن استعانت بخبرتهم الطويلة في

التدريس جامعة صنعاء التي بنتها دولة الكويت كهدية لليمن في العام **1970**. تماماً كما تم الاستعانة بخبرة الجيش المصري بعد قيام الثورة للقضاء على ما تبقى من الملكيين، أنصار الحكم الإمامي في حرب السبعين يوما وحصار صنعاء!.

لم يكن الأمر غريباً عليَّ لأني نشئت على أيدي أساتذة مصريين منذ المرحلة الابتدائية، ولم يكن للمدرس اليمني ظهور بشكل كبير إلا في المرحلة الثانوية. تماماً كما بدأ المحاضر اليمني في الجامعة يتواجد بشكل واضح من أواخر السبعينيات، بعد أن عادت معظم البعثات التي تم إرسالها لدراسة العلوم المختلفة خارج اليمن، من الدول العربية والأجنبية.

كان من الطبيعي أن يلفت فتوري وقلة نشاطي صديقاتي في القسم اللاتي وقفن إلى جواري وبعض الدكاترة الذين استمروا في تدريس مواد السنة الثانية. لكن الذي لم يكن طبيعياً وغريباً جداً عليَّ هو موقف الدكتور هشام، المحاضر اليمنى الوحيد، القادم من جامعة عدن كما اخبرنا. فبعد انتقاده الدائم لأسلوبي الاستفزازي ـ كما يقول ـ في النقاش! إلي تلميحاته بأنها استعراض معلومات ومقاطعة غير مفيدة لاسترساله في الشرح!... أصبح أكثر لطفاً في تقبل نقاشي وان قل! محرضاً لرغبتي في المشاركة والحوار! مستشهداً بقوة بحث آخر العام الماضي الخاص بي دونا عن باقي البحوث التي سُلمت له!...

ختم كل ذلك الدكتور هشام باستدعائي لمكتبه ونُصحي بعدم الاستسلام للظروف، بعد سؤاله عن سبب شرودي وقلة مشاركتي ومعرفة ما حدث لنادر! وشدة الصدمة على العائلة بأكملها! قائلاً: إن ما حدث لنادر قضاء وقدر، وعليَّ الإيمان به والسير قدماً. لأنه لا يريد لطموحي أن يتوقف ولا لثقتي بنفسي وبقدراتي العلمية أن تهتز، لأني طالبة مميزة لديه ومتميزة على باقي زملائي بحيوية نشاطي وتفاعلي معه في المحاضرة!...

دهشتي، وربما فرحتي وحيرتي من تصرفه لم يمنع أن أعده بكل ما أراد. وفعلاً كان عاماً حاولت فيه جاهدة أن اجعل كل ما عدا الدراسة وراء ظهري، وإن لم يخل من نظرات حرت في تفسيرها، تلميحات أتعبني تأويلها، منه، من الدكتور هشام!!!

استشرت سلى، فيما يجب عليَّ فعله، إنها خارج الدائرة، قد ترى ما لا أراه! تماماً كما تستشيرني في أمور مختلفة. المدهش أن كلتانا تمر بنفس المشاعر في نفس الفترة. أنا: اهتمام هشام المبالغ فيه بي وحيرتي منها! وهي: اهتمام ابن الجيران "أمين" الطالب في السنة الرابعة في كلية الطب، الصديق الحميم جداً لنادر رحمه الله، ورؤيتها له أكثر من مرة في كليتها للسلام عليها ودحرجته لأعذار تعلم أنها مختلقة لزياراته!...

كنت أثرثر لها كثيراً عن الدكتور هشام، روعة محاضراته، أناقته في اختيار ألوان ملابسه، الشاي الحليب الذي يطلبه وسط المحاضرة، فضول معرفة سبب عدم نومه وفيما كان سهره، إذا أفصح عن ذلك

إحمرار عينيه، أو الإرهاق البادي على وجهه!... انُهي ثرثرتي بسؤال تستقبله سلى بصمت لأنها تعلم أنني لا أريد إجابة!!! وأن الغرق اللذيذ في هذه الحيرة يسعدني! (ترى ماذا يريد منى الدكتور هشام بتصرفاته؟). تماماً كما يسعدها التساؤل عن سبب تكرار زيارة أمين لكلية الهندسة، وملاحقته لها بنظرات أصبحت تسبب لها حرجاً بين زملائها، وحيرة وفضول في أعماقها!.

لم تظل سلى في الحيرة طويلاً! وقف أمامها أمين وبمنتهى الجرأة في آخر زيارة له لكليتها، وهو يقول كلام متتابعاً لم تستطع إلا التقاط شذرات منه من هول المفاجأة! غير مدركة أن ذلك الخجول الذي لم يكن يرفع رأسه عند زيارة نادر في منزلنا، هو الذي أمامها! طالباً منها الزواج، لأنه رأى نادر في منامه وطلب منه الاهتمام بسلى وكررها ثلاثة مرات (سلى يا أمين، سلى يا أمين، سلى يا أمين!...). وأنه يريد معرفة رأيها في الحال!..

لم أكن أمنى نفسي على أية حال بقصة حب بين الأستاذ والتلميذة ! كتلك التي قرأت عنها كثيراً أو شاهدتها أكثر في الأفلام العربية والتي تنتهي اغلبها بالفشل لاعتبارات كثيرة، مثل فارق السن، اختلاف المستوى الثقافي والمادي أحياناً، نظرة المجتمع لعلاقة كهذه. وأن كانت جميعها من وجهة نظري أسباب يقف أمامها الحب أسمى وأعظم وأكثر قدرة في التغلب عليها جميعا!... لكن ذلك لم يمنع أنها وردت على خاطري،

شغلت تفكيري، أصبحت لفترات هاجسا ملحا، نشوة غامرة، سعادة أهرب إليها ولو في الخياال.

ليتها ظلت كذلك، خيالاً لا نهاية له، ليس إلا!. اهتمام مُدرس بطالبة متميزة، ليس إلا! حلماً لن يتحقق ورغبة لم تكتمل، ليس إلا! ليس إلا!! ليس إلا!!!... لكنها لم تكن كذلك. كانت شيئاً لم أفلح يوماً في تسميته! ألم لا يشبه غيره! مرارة! غصة! لا أعرف إن كانت في حلقي، أم قلبي، أم عقلي، أم هي مصير حياتي الأبدي!...

وكأن ما حوته مفكرة العام الجامعي الثالث لم يكن سوى سحابة امتطيتها، لتحلق بي في سموات سبع، نشوة!... قبل أن تخسف بي أيضاً أراض سبع، ألم وعذاب وحسرة!...

في بداية العام حدث الشيء الذي لم أتوقعه. ولم يخطر على بالي يوماً. ولو حصل وكتبت قصة فلم يكن ما حدث جزءاً منها ولو في اللا معقول! فبعد أن عُلقت نتائج العام الماضي في لوحة الإعلانات، استدعاني مباشرة و للمرة الثانية الدكتور هشام إلى مكتبه، لتهنئتي بالنتيجة المشرفة التي حصلت عليها في جميع المواد، وأنني لم أخيب ظنه، قهرت الألم والحزن والظروف النفسية الصعبة، بالنجاح والتفوق!... استقبلت كلامه بفخر وزهو وابتسامة امتنان، قبل أن يُذيَّل: "لذلك أنا معجب بك فرح وبإصرارك على التفوق والتميز وأرغب في التعرف عليك أكثر!"...

شيء ما انتفض بأعماقي، أطبق بغرابته على حواسي!. لم انبس ببنت شفة. رمقته بنظرة هو الذي

يستطيع أن يقول عما كانت تقول والى ما تهدف!... غادرته، وبياضا يسيطر على كل ما حولي!... نعم كل ما حولي!!!... الممر الذي عبرته!... الدرج الذي نزلته!... الطريق الذي قطعته للمنزل!... وأخيراً وجه سلى الملائكي وهي ترجوني أن أخبرها بما حدث؟ أن أفسر لها ذلك الوجوم والدهشة البادية على وجهي!؟...

أظنني استوعبت جملة الدكتور هشام صباح اليوم التالي! وأنا أروي شجرة الياسمين في حديقة منزلنا الصغيرة والقريبة من نافذة حجرتي. استنشقت عبقها بعمق سرى في أوصالي حياة أخرى، حياة جديدة تنتظرني، حياة مختلفة فاتحة ذراعيها لاستقبالي بشوق، لاحتضاني بحب، حياة لم أحدد معالمها بعد!. يكفيني إشراقة حروفها وإغراء جملتها الأولى، لأستبشر بلونها وطعمها ورائحتها خيرا!... "أنا معجب بك فرح وبإصرارك على التفوق والتميز وارغب في التعرف عليك أكثر!"...

ترى! هل ينتظر الدكتور هشام أن أرد عليه؟ وهل حقاً وصلت أسماعي تلك الجملة؟ وإلى ذهني ذلك المعنى الذي قصده ولا يوجد له سوى تفسير واحد فقط؟... حاولت أن أبدو طبيعية في المحاضرة بعد ذلك. هو أيضاً جاهد أن لا يركز بنظراته علىَّ، وعلى غير عادته لم يستفزني بتلميحاته للمناقشة، تماماً كما لم أقاطعه بتعليقاتي واستعراضي بمعلوماتي كما يحب أن يقول!...

يا إلهي ماذا يجب علىَّ فعله؟ هل كما قالت سلى: "كأن شيء لم يكن، الخطوة القادمة منه أيضاً !..." وإن لم

يفعل لأنه ينتظر الرد! هل ينتهي كل شيء؟ ارتعدت فرائصي لمجرد عبور فرض كهذا على مخيلتي!..

"لماذا!؟" كان يجب علىَّ أن اسأل نفسي! هاهي الفرصة أمامي، الموضوع جِدي، ولا يمكن مقارنته بقصة رسائل ابن الجيران في محتوى الكتب التي كان يستعيرها! أو حتى رسائل تحت القدم، لغزل الأولاد في طريق المدرسة!... الفرصة سانحة إذا لقصة حب!... قصة حب، كانت هاجسي لفترة طويلة، موعدها وكيفيتها، في مجتمع كالمجتمع اليمنى، تتم معظم علاقات الزواج فيه دون تعارف مسبق! وإذا رأى الزوج صورة زوجته قبل عقد الزواج فهذا خير كبير، يدل على تحضر العائلة التي وافقت على إعطاء الصورة وعلى أن الرجل متدين لحرصه على تنفيذ شرع الله في الزواج!... إضافة إلى أن الرجل أولا وأخيراً لا يعيبه إلا جيبه، حكمة أمي وأمها أم أمها!...

وحدث لي ما أردت. قصة حب، عشتها بكامل تفاصيلها، ذبت في أعطافها، تمتعت بأحداثها، عاماً لم اشعر به، كيف مر! ولماذا بهذه السرعة...

عرفت هشاماً بشكل جيد، صفات رجل ناضج يكبرني باثني عشر عام، تمنيته ليحتويني. غصت في أعماقه. حفظت تاريخ ميلاده، وعرفت شذرات كثيرة عن حياته. دراسته حتى المرحلة الثانوية في عدن، تحديداً بيته ومدرسته في قسم ألف في منطقة الشيخ عثمان. هروبه من عدن في منتصف السبعينات، بعد فشله في الحصول على منحة دراسية رغم مجموعه العالي ومن ثم سفره

إلى ألمانيا بعد قراره الاعتماد على نفسه في مصاريف دراسته. عاد إلى عدن في أواخر عام 85، ومغادرته أو على الأرجح هروبه منها عقب أحداث يناير الدامية في 86، إلى قبول أوراقه في جامعة صنعاء كمدرس في قسم الفلسفة عام 1987.

كل هذا كان بعد موافقتي قبول دعوته للقائي في حديقة منزله، لم أكن لأقبل بذلك لولا كلامه المنطقي جداً والمقنع جداً. "أين يمكننا الجلوس، وصنعاء تكاد تكون خالية من المطاعم العائلية أو الكافيتريات أو حتى المتنزهات، وأن وجدت فيتحول أي اثنين بدون أطفال حوليهما إلى مشتبه بهم! تخترقهم العيون بتلصص مريب وكأن كلاميهما جريمة تستحق ثورة فضولهم!..."

احتضنتنا حديقة منزله الصغير، أشجارها، ورودها، سورها. في الخامسة من مساء كل يوم خميس كان لقاءنا، وفي السابعة وداعنا. حديث، مناقشات، جدل، غزل... يبدأ بالشاي الخرافي المذاق الذي يجيد صنعه على الطريقة العدنية بالحليب والهيل. (شاي الخامسة، الذي أصبح طقساً لا يمكنني مجرد التفكير بالتخلي عنه حتى الآن، بعد انقضاء كل هذه السنوات!...)

كان شديد الحرص في تعامله معي! يعتذر إذا ما أطال ملامسة يدي أثناء مناولته الشاي. يبرر نظراته المفاجئة، الحانية، المحِبة، التي كانت تذيبني نشوة لا سبيل إلى وصفها أثناء حديثنا!... تمر الساعتان سريعاً. لم أشبع يوماً من رؤيته أو الحديث معه، طيلة العام الذي شارف على نهايته!...

العام الجامعي الثالث يعلن نهايته. لم يبق على تحقيق حلمنا في الزواج الذي فاتحني فيه كثيراً غير عام واحد!. هكذا طلبت منه. لابد لي من الانتهاء من الدراسة. بداية طموحي الذي سأسعى لتحقيقه وكان أول شيء شده للتفكير فيَّ. سأكون يوماً مثل هشام. أستاذة جامعية. مخلصة لمهنتها. مميزة في أدائها. مطوره لأساليبها في التعامل مع الطلبة، تماماً كهشام، تماماً، تماماً !...

لن أرى هشاماً في إجازته الصيفية. سيسافر. جولة أوربية، تعوَّد عليها منذ أن كان طالباً هناك. لكنه وعد بمراسلتي خلالها، وعد أيضاً برفقة خيالي العذب، حوار شاي الساعة الخامسة، تفاصيل مناقشتي، وروعة مقاطعتي له في المحاضرات، تلك التي ألهبت فضوله لمعرفة المزيد عني، أرقت ليله باحثاً عن وسيلة لذلك، حرضت مشاعر صادقة في أعماقه أن تباهي بوجودها!...

ليس هذا فحسب ما قاله في لقاء الوداع قبل سفره، لكنه فعلها!!! تجرأ وفعلها. حدث ما تمنيته في أحلامي ودغدغ مشاعري في يقظتي!... باغتني ولفني بين أمان ذراعيه، تعانقنا طويلاً، سرت في عروقي نشوة لا سبيل لوصفها! أغمضت عيني في ملكوت حنانه! طوقني بقوة وحرارة، شعرت بها أنفاسه، ظامئة، تلسعني حرارتها، تقترب مني، تلامسني!... إذا هذه هي القبلة! هذا هو مذاقها! توغل لذيذ لما بين الشفاه. شهد لريق يذيب روحك، يتماها في كيانك، يرعش أوصالك!... مفاجأة، مباغتة مدهشة، لذيذة، اكتشاف فاق كل تخيلات الملامسة لشفاه عشعشت في ذهني طويلاً!...

لحظة تحولت أمنياتي المستحيلة لو تحققت إلى سراب... لحظة تمنيت أن لا أفيق من نشوتها أبداً..."سأفتقدك فرح، انه الوداع" همس بها في أذني، قبل أن تقول عيناه كلاماً محيراً عجزت عن فهمه، عن تفسيره... لم أتخيل أنه سينكشف لي أسرع مما توقعت!!!

مر شهر على سفره. شهر أعرج كل يومين فيه على البريد، فرحة خطواتي، مبتهجة ملامحي، يكاد بلل الشوق في مآقي يفضحني وأنا افتح الصندوق المكتظ بالرسائل، أتفحصها جيداً "ممكن!" "ربما!" "علَّ وعسى!" "احتمال!" "من الجائز!" أن تكون أحداها لي. لا فائدة!.

أعود لابنة الجيران بكل الغنيمة التي في الصندوق، رسائل هلت عليها من كل حدب وصوب بعد نشر صورتها في ركن التعارف لأحد المجلات العربية. لم تكن تتوقع أو تتخيل أن يصلها هذا الكم الهائل من الرسائل. لذلك لم تترك كلمة شكر على إيصالها أو اعتذار عن استخدام رقم صندوق البريد الخاص بي إلا وقالتها لي!... لو علمت أن رسائلها كانت العذر المناسب للخروج من المنزل والذهاب المنتظم للبريد! لما اعتذرت أبدا! ولغادرها الحرج الذي لم يفارق وجهها كلما مددت لها بالرسائل!...

"ما تأخر فيه الخير"حكمة أمي المفضلة التي آمنت بها بعد وصول أول رسائل هشام. تماماً بعد انقضاء الشهر الأول لسفره. ألقيت بالرسائل عداها إلى جواري، افترشت الأرض أمام الصندوق المفتوح لقراءتها غير عابئة بكل من حولي!. بدا لي طريق العودة طويلاً.

أرغب لو أتمكن من الطيران لأصل المنزل، تحديداً حجرتي، أمام نافذتي، وأعيد قرأتها مرات ومرات، وعبق رائحة الياسمين يعصف بي!... رسالة فاقت كل توقعاتي، كما وكيفا. تلتها رسائل تفوقها سحراً وروعة، كانت تدهشني، تبهرني، تمتعني...

رسائل من خلالها عرفت العالم. زرت وتجولت بعينيه في كل مدن الأحلام التي تمنيت رؤيتها!... لم يخطر على بال أحد أن هولندا، ايطاليا، فرنسا... التي أتحدث عنها وعن معالمها وآثارها ومبانيها ومتاحفها لم أزرها في حياتي قط!...

برفقته زرت متحف صاحب الريشة العبقرية، فان جوخ في أمستردام، وذبت إعجاباً بلوحاته. وحال خروجنا أهداني هشام وردة عباد الشمس بنصف قامتي، حاصرتني ورودها طيلة اليوم، الفجر، الصباح، الضحى، الظهيرة، العصر، المساء... مارست هوايتي التي لم تتعدى سور منزلنا الضيق وقدت الدراجة حتى كلت قدمي في أنحاء أمستردام!...

وفي باريس، زرت حدائقها، جامعاتها، متاحفها... تمتعت باعتلاء برجها الشهير، رائعة المهندس المعماري جوستاف إيفل، تخيلت ازميرالدا الغجرية في رواية "أحدب نوتردام" لفيكتور هوجو، وهي ترقص في ساحة الأمنيات لكاتدرائية نوتردام الشهيرة. رافق مساءاتي نهر السين وأنا استمتع بهدوء جريانه الساحر، أما قوس النصر فقد عبرته مرات ومرات متلهفة لوصول الشانزلزيه الشارع الذي لا ينام!...

ايطاليا، ظفرت بنصيب الأسد من رسائله ومن خيالي، رقصاتها، قصورها، متاحفها، مدنها العبقرية، نافورة الأمنيات، البانثينون، الكلوزيوم، في روما... قضاء يوم كامل في الجندول حول البندقية... ويوم آخر لمجمع بيزا وبرجها المائل!...

هذا هو العالم الخرافي الذي عشته مع رسائل هشام قبل أن تنقطع فجأة. لم أعرف السبب! حتى انه لم يخبرني بموعد وصوله لأعرف في ما إذا كان ذلك سببه قرب وصوله أو أن مكروها أصابه!....

يا لغبائي! من البديهي وصوله بداية العام الدراسي الذي اقترب موعده. إذا سأراه في أول يوم... سأصطحب معي ردودي على رسائله، أتقنت كتابتها بشكل مذهل! ستدهشه بالتأكيد. ستكون محور حديثنا ونقاشنا في أول لقاء لنا بعد غياب ثلاثة أشهر كاملة، تحديداً ثلاثة وتسعون يوما لم أره فيها!...

لكنه لم يحضر! لم يحضر هشام! ليس اليوم الأول ! ولا الأسبوع الأول! ولا الشهر الأول فقط! لقد غاب طيلة العام...

العام الذي كان يعني لي الكثير وتحقق فيه الكثير. في منتصفة تحديدا 22 مايو 1990 انتشى قلبي فرحاً بقيام الوحدة اليمنية بعد أن عاني اليمن كثيراً من التشطير البغيض. وفي نهايته حققت حلمي وحصلت على الترتيب الأول في الشهادة الجامعية. لكنه أيضاً كان عاماً كئيباً، حزيناً... عاماً كنت مثخنة فيه بجراح تنكأ حتى الآن رغم مرور ثمانية أعوام عليها!... عاما أحرقت الحيرة فيه

ذكرياتي ونثرت رماد آمالي في مهب الريح، بلا عودة... عاماً تردد في أعطافه انتقال الدكتور هشام لجامعة عدن. تاركاً وراءه علامة استفهام كبيرة لمتوالية أسئلة لا نهائية! وسؤال تزداد حروفه، تتصاعد!... قد تكون شكلاً يمكنني تفسيره أو فهم رموزه! سؤالا قض البحث عن إجابة له مضجعي! وأصبح هاجسي الذي لا أمل تكراره كلما خلوت إلى نفسي حتى اللحظة، لماذا؟ لماذا فعل هذا بي؟؟؟ لماذا فعل هذا بي بعد كل ما كان بيننا؟ لماذا... ... ...؟؟؟

رغبة شديدة في الصراخ وفي البكاء بل في النحيب! رجفة ضياع متأججة في أعماقي، تصهرني في أتونها... كل هذا يجب أن لا ينضح!... لست مستعدة لتبريرات "ماذا بك!؟" من المحيطين بي!... وحدها سلى كانت تتوحد معي حزناً، تخفف ما استطاعت من مرارة خيانة لم تخطر على بالي! من ألم طعنة تلقيتها في ظهري! من سقم مزمن لن أشفى منه! رغم مرورها بأروع فترات حياتها! وتمتعها بأعظم اعتراف من أمين! بحبه لها، بل عشقه لها! لذلك كان يزور كليتها، ينتظر انتهاء محاضراتها، يراقبها دون أن تشعر لتصل للبيت، يطمئن قلبه عليها ويمضي!... بعد عام سينهى دراسته في كلية الطب، وبعد عام وافقت سلى على أن يتقدم لخطبتها! بعد عام ستحتفل بتخرجها وبخطبتها!...

قلبها سلى الذي يفيض حباً وعطاءً لكل من حولها يستحق هذه الفرحة، يستحق رجلاً نبيلاً مثل أمين يكن لها كل الحب! يستحق تلك الليلة الأسطورية لزفافها،

تعالت فيها الزغاريد فرحة، منتشية بابتسامات لم تفارق الشفاه وأمنيات غادرت القلوب لتستقر في القلوب!...

صنعاء جنوبا!

في لحظة تجل وافق عميد الكلية على رحلة ترفيهية لطلاب التخرج، المتفوقين في الدراسة والمبرزين في الأنشطة. إلى أين!!! إلى عدن!... أقول لحظة تجلي، لأنها كانت شبه مستحيلة في تلك الفترة بعد أن أصبح الفكر السلفي لأغلب الطلبة سائداً ورحلة مختلطة كهذه في نظرهم لا تصح وحرام!... خاصة أنها لعدة أيام!...

لم أصدق أذني وأنا أسمع تبادل الخبر بين الطلبة! حتى رأيت الإعلان في لوحة الإعلانات شاملاً شروط الاشتراك ومدة الرحلة. تسمرت قدماي للحظات أمامها، فاغرة فاهي دهشة من إعلان كهذا! وحسرة لأني لن أتمكن من الذهاب!

موافقة أبي على رحلة كهذه، أبيت فيها خارج المنزل لعدة أيام! مستحيل! وإبداء رغبتي في الذهاب كان من باب المحاولة حتى لا ألوم نفسي، بأنني لم أفعل! وأن هناك فرصة ربما تمكنني من رؤية هشام ولم أسعَ إليها!.

"نعم! موافق! إذهبي الرحلة: إنها جائزة ترتيبك الأول المشرف الذي أعتز به. جائزة سهرك وتعبك وتحصيلك طيلة أربع سنوات لم تذوقي فيها طعم الراحة!" احتضنته أبي، قبلته، شكرته بوابل كلمات إنهمر عليه بعد قول جملته المذهلة!.

إذا سأرى عدن التي حلمت بها طويلاً، لم يعد يفصلني عنها، عن بحرها، عن هوائها، عن ناسها، سوى ساعات!... بل لم يعد يفصلني عن هشام سوى ساعات، عن مدينته التي كان يحاول جاهداً تورية دموع الشوق كلما تحدث عنها أمامي!...

معرفتي و معلوماتي بالمناطق الجنوبية لصنعاء ضعيفة جداً، مقارنة بالمناطق الشمالية التي أستطيع أن أُفتي في مدنها وقراها. بل إن بعضها تمنيت أن أقطع المسافة بينها مشياً على الأقدام كما كان يفعل أبي في شبابه قبل قيام الثورة، مع فارق أنه مشاها ليكسب رزق قوته، خلف حمار أو بغل يتم تأجيره، ليعود به إلى صاحبه مقابل ربع ريال "فرا نصي"[11] من وإلى مختلف المناطق مثل: ثلا، حبابة، كوكبان، الرجُم، الطويلة، المحويت، حجه...

[11] العملة النمساوية المتداولة قبل قيام الثورة.

تنتهي حدود صنعاء جنوباً في ذاكرتي ب"وادي قحازة" الوادي الأخضر الذي يقع تماماً في جنوبها الشرقي: متنفس أهل صنعاء في رحلاتهم كل يوم جُمعَة. متنفس طلاب المدارس في رحلاتهم السنوية، متنفس الأصدقاء للقاء، أو لقضاء يوم يستمتعون فيه بالراحة والهدوء!... خف زوار الوادي إلى أن انعدموا بعد فترة جفاف طويلة عانت وتعاني منها اليمن منذ الثمانينات. هذا الجفاف خفف الخروج للتنزه في اغلب المناطق. لتعود هذه العادة وبقوة بعد قيام الوحدة. فتحت ذراعيها عدن لكل الناس ومن جميع المناطق. أصبح للأعياد والأجازات مذاق خاص في عدن. وأمام روعة بحرها، وسحر شواطئها يهون تعب الطريق ومشقة السفر وصعوبة الحصول على أماكن إقامة يلجأ فيها البعض للمبيت داخل سياراتهم أو على الشواطئ!...

ساعدتني سلى في تجهيز حقيبة سفري، على الأرجح هي التي جهزتها. سعادتي وتحليقي المبكر في الرحلة وأجوائها أصابني ببلادة تفكير شَعَرَت بها وأنقذتني من ورطة نسيان أي غرض قد احتاجه!...

انطلق بنا الباص في السادسة صباحاً. سير الرحلة تم التخطيط له بدقة حتى لا نتأخر ولا تزعجنا حرارة الشمس. لكن وبسبب السواق البليد الذي أهمل في تفقد الباص، اضطررنا للتوقف في مدينة مَعْبَر، بعد قطع ما يقارب السبعين كيلو متر فقط من صنعاء، حتى يتم إصلاح الباص ومن ثم مواصلة السير!...

شعرنا بالضجر، أنا وزميلاتي، معظمهن من عدن، في ما عداي، ميادة، ومنى، من صنعاء. اقترحت أحداهن القيام بجولة في مَعْبِـَر: وهو اسم مشترك تحمله عدة قرى في محافظتي تعز وإب، هذه أشهرها من بلاد آنس، يفترق عندها الطريق إلى صنعاء شمالاً وعدن جنوبا، وتقع وسط قاع جهران الشهير بخصوبة أرضه. مدينة جميلة، تشعرك منازلها الطينية القديمة بحميمية أهلها، ودفء ينبعث من أركانها، بدا ذلك جليا لنا عندما دعتنا أحدى النسوة للاستراحة في منزلها لحين تصليح العطل، أكرمتنا فيه بخبز تنور ساخن يتناولونه كفطور مع قهوة القشر[12]...

واصلنا السير بعد تصليح عطل الباص، مارس الجميع طقوس السفر التي تعودوا عليها. اختلطت الأصوات، تعالت القهقهات، امتزجت الأغاني والموسيقى لتحلق بنشوتهم... كل هذا وأنا أبحلق في روعة المناظر التي نمر بها، بيوت متوحدة مع الجبال كأنها نبتت من أعماقها. جبال تحتضن قُرى، تبثها قوتها وشموخها وأنفتها، جبال عارية يلفها سواد حزين يليها جبال مبتهجة بخضرتها. تناقض غريب، مَدَّني براحة لا سبيل لوصفها، تناقض يشبه تأرجح مشاعري تجاه هشام في هذه اللحظات، حنق وحيرة من تصرفه، شوق

[12] يستخدم قشر البن في صنع القهوة، ويستخدم بكثرة لرخص ثمنه عن البن.

لرؤيته، لهفة للقائه، وخوف لتوقعات سوداوية جاثمة على صدري لا تفارقني!...

مررنا بمدن عدة: ذمار، يريم، كِتاب، الدليل، إب والقاعدة قبل أن يستقر بنا الحال في مدينة تعز لتناول طعام الغداء ومن ثم التمتع بساعة حرة للشباب في شراء القات وزيارة خاطفه لأهاليهم، خاصة وأن أغلب الطلبة كانوا من مدينة تعز. أما نحن البنات فقد طالبنا بجولة في المدينة ورؤية تعز من جبل صَبِر الذي تقع في سفحه ويعلوها بحوالي ثلاثة ألف متر. اندهشن زميلاتي وربما لم يصدقن أنها المرة الأولى التي أرى فيها تعز، واني لا أملك لها في ذاكرتي سوى مخزون قراءة كتب التاريخ عنها، واللائي كن يجهلنها، شعرت بذلك ووجدتها فرصة لاستعراض معلوماتي أمام اندهاشهن: فهي عاصمة اليمن الثانية منذ الدولة الرسولية التي امتد حكمها في شتى بقاع اليمن في القرن الثالث عشر الميلادي. وهي التي زارها ابن بطوطة ووصفها بأنها "أحسن مدن اليمن وأعظمها". زارها أيضاً الرحالة الدانمركي نيبور ورسم سورها وبابيها الشهيرين آنذاك (الباب الكبير وباب موسى) وقباب مساجدها (قبة حسين، والأشرفية) وسوقها وقلعتها التاريخية (القاهرة)...

فعلاً بعد صعودنا قمة جبل صَبِر، واستمتاعنا بجمال وروعة مدرجاته الخضراء، والقرى الصغيرة الملتفة حوله، ورؤية المدينة القديمة وامتدادها الحديث في كل الاتجاهات. شعرت بأنها "ملكة الجنوب اليمني" كما

وصفها الكاتب الإنجليزي "سكوت" في أربعينيات القرن الماضي!...

وصل الجميع بعد انقضاء الساعة المحددة. تحرك الباص باتجاه عدن. تحمس السائق بشكل ملحوظ بعد أن أمطرت عليه السماء قاتا! جاءه من كل الموالعة في الباص (طلبة ومُدرسين)... بعد اقل من ساعة رجوت أحد زملائي أن يبادلني المقعد، المقعد الأمامي سيمكنني من رؤية الطريق بشكل أفضل، أريد حفرها في جدار دماغي، أشعر بنبضات هشام وأنفاسه فيها، سأتخيل طقوس سفره، سأتقمص شعوره وهو يلجها، معشوقته الأولى عدن...

قطع ذلك الفضاء الساحر الذي كنت أعيشه اضطراري لسؤال زميلي العدني إلى جواري عن أسماء المناطق التي نمر بها. إضافة إلى سؤالي الذي ربما بدا له مملا! عن المسافة المتبقية للوصول إلى عدن؟ بمعدل سؤال كل ربع ساعة مع انه ببساطة كان يمكنني حسابها بنفسي!. لكني وصلت إلى مرحلة أردت البقاء فيها منتشية باستحضار طيف هشام اللذيذ، بالتوحد معه، بمناجاته ولو لساعات!... اكتفى زميلي بتعريفي بأسماء المناطق بعد أن شعر أنني في عالم آخر عندما كان يبدأ في سرد ذكرياته عنها التي لم أع منها حرفاً واحداً!.

كم كانت رائعة في تلك اللحظات، بل ساحرة، جميلة، خالدة، كلمات أغنية ابوبكر سالم بالفقية "باشل حبك معي! بالقيه زادي ومرافقي في السفر"، غنيتها لهشام همساً دافقاً، مخلصاً، محباً، تمنيت لو يصله! أمنية تشبه

السراب الذي أمامي، تؤمن بأن رؤية مائِه المتلاشي تباعاً يكفي ليروي ضمأك ويبعث في أوصالك الحياة!...

قبل أن نصل عدن مررنا بالراهدة، الشريجة، كرش، العند، الحسيني، والحوطة عاصمة محافظة لحج...

تزايدت نبضات قلبي وهو يقول - زميلي ذاته - نحن في "دار سعد" بداية عدن، وبعد دقائق سترين على يسارك منطقة "الشيخ عثمان" جحظت عيناي باتجاه اليسار باكراً... سَلمت على هشام في أعماقي كأنه أمامي! إنها منطقته التي كان يسكنها قبل مجيئه صنعاء! ترى هل يسمعني؟ هل يشعر بي الآن؟ والأهم من هذا كله! أين هو؟ هل هو بخير؟ وان كان كذلك! فلماذا اختفى دون تبرير أو إرسال رسالة؟ شعرت بدوار وصداع لمجرد دخولي في هذه المتاهة من جديد، أتعبتني! أرهقتني! عذبتني! عاماً كاملاً لم أكف فيه عن ترديد كل هذه الأسئلة! حائرة حد الجنون، باحثة عن إجابة تشفي غليلي وتمدني بالراحة! ولفترات كثيرة، جل ما تمنيته فيها أن يكون بخير وكفى!...

أشم رائحة حلمت بها طويلاً، نسائم باردة تلفح وجهي. إنها رائحة البحر. علا صوتي "واووو بحرين!" كما علت قهقهات الجميع على اندهاشي. أنا الفتاة الجبلية، برؤية البحر لأول مرة. لم اهتم بتعليقاتهم المرحة جداً والبريئة جداً، وأنصت بكل حواسي لزميلي وهو يشرح لي بأن ما أراه من مياه على اليمين وعلى اليسار ليس بحرين كما تبادر إلى ذهني. وأنه بحر واحد لأننا الآن على الطريق البحري الذي يربط طرف عدن الأول

(كريتر، المعلا، التواهي، خور مكسر...) بطرفها الثاني (الشيخ عثمان، المنصورة، دار سعد...) وأن هذه المياه التي أراها على يميني ويساري هي جزء من أحواض ممتدة لمنطقة تدعى "المملاح"، يتم تبخير المياه فيها للحصول على الملح!...

بعد هذه المعلومات المفيدة التي لم اقرأ أو أسمع عنها بهذه التفاصيل. توجب علىَّ أن اشكر زميلي بحرارة قبل أن يتوجه مع البقية إلى بيت الشباب مقر إقامتهم، أما الطالبات وأعضاء هيئة التدريس، فإقامتهم كانت في فندق "جولد مور" أو كما يسميه البعض "الساحل الذهبي" الترجمة العربية والأكثر استخداما لكلمة "جولد مور" الإنجليزية.

تمنيت، أن تكون حجرتي مطلة على البحر، وكان لي ما تمنيت مع زميلتيَّ منى وميادة. كُنا ثلاثياً ناجحاً رغم معرفتنا السطحية ببعضنا فيما سبق. انسجمنا بشكل مدهش طيلة الثلاثة أيام المقررة للرحلة. ربما كانت معرفتي بهن، واكتشافي مدى روعتهن في التعامل، هي"صحبة ماجد"، أكثر الخمس فوائد للسفر التي ذكرها الإمام الشافعي في أبياته المشهورة.

ألقيت بحقيبتي على السرير، توجهت لأفتح النافذة. لأعرف أين أنا!!! وهل تحققت أمنيتي!!! أم أنها كغيرها!!! أمنياتي التي لا تتحقق!!! ولم تغادر يوما حنايا فؤادي!...

يا إلهي!. لم اصدق ما أراه أمامي!. أي لوحة خرافية هذه التي أمامي! أي شمس هذه التي توشك أن تلقي

بلهيبها في أعماق الماء! أي بحر هذا المترامي الأطراف قبالتي!. كان هشام في تلك اللحظات قريبا مني أكثر مما تصورت، أشعره صامتاً إلى جواري، تلسعني حرارة أنفاسه، ذائباً في ملكوت دهشتي، محتضنا يدي، هامساً بعذب صوته في أذني أغنية فيروز الرائعة "كبر البحر بحبك" (من تلك اللحظة واستحضار طيف هشام ومناجاته، طقس أدمنته، تنبض أوصالي، ترتعش، تحلق لذتها نشوة في فضاء أحلامي برفقته، ثمانية أعوام أذوب فيها وفيه، هشام حبي الضائع! ولهي المجنون! عشقي الأبدي!...)

ابتلع سواد الليل كل ما عداه في جوفه. لم أنم ليلتها. هدير الموج، القمر المكتمل، خيوطه الفضية المخترقة كل ما حولها. لوحة خالدة أمامي لا يضاهيها روعة إلا ذلك الفجر الأسطوري الذي شهدته، وتثاءب البحر الذي للتو أيقظته!...

رجوتهما، منى وميادة بمرافقتي للشاطئ في تلك الساعة المبكرة. لم تتذمرا رغم أنني أيقظتهما بصعوبة. ملامسة قدمي للرمال، استقبالهما لأمواج مد البحر، تقدمهما للأمام، شعور لا سبيل لوصفه، لا سبيل إلى نسيانه، للأشياء الأولى في حياتنا نكهتها ورائحتها المتميزة والفريدة التي تظل عالقة بكيانك، رفيقة لدربك مدى الحياة!... ورغم كل هذا يظل هناك منها ما تتمنى نسيانه، مسحه من خارطة حياتك، دفنه في أغوار ارض لا تراها أو تسمع عنها!!!...

تقدمت، غمر الماء نصف جسدي، لا أجيد السباحة، رغم كل هذا العشق للبحر. لم يكن تعليمها من ضمن خطط أبي أو سياسته للبنات. عكس الأولاد! حرص على تعليمهم إلى جوارها الرماية وركوب الخيل! أعني قيادة السيارات!... عاتبته يوما على ذلك ونحن في مدينة طرطوس السورية الجميلة متجهين على متن قارب لزيارة جزيرة تاريخية رومانية لا زالت تحتفظ بمبانيها المميزة تدعى "أرواد" لا تكف القوارب عن نقل مرتاديها من السياح طيلة اليوم. تكفيهم ساعات قليلة للتجول في أنحائها وزيارة معالمها، إضافة إلى شرب القهوة التركية المميزة على شاطئها وشراء تذكارات سياحية للجزيرة مثل: قوارب خشبية منحوت عليها حروف لاتينية وعربية بطريقة مميزة، مشغولات فضية، ميداليات...

- "ماذا لو غرق بنا القارب الآن! وأنا وأنت وسلى لا نجيد السباحة؟" سألته...

- "على أيامي وبعد حادث غرق لصديقي العزيز في سد القرية الكبير، تعقدت من السباحة ورفضت تعلمها من ذلك الوقت رغم مرافقتي لأصدقائي لذات السد مرات ومرات! وعلى أيامك أنت وسلى، أذكر لي مكاناً واحداً في صنعاء يقوم بهذه المهمة، وأنا مستعد!"...

أجابني بهدوء مع أنه في قمة شعوره بالخوف من ركوب القارب، أمام تلبية رغبتي أنا وسلى في زيارة الجزيرة!...

كان لديه حق في كل ما قال. أطلت التفكير في كل من حولي من صديقات أو جيران أو معارف. لا أحد يجيد السباحة، فيما عدا بعض صديقاتي اللاتي لهن أم غير يمنية وكان ارتياد الفنادق الكبرى والسباحة حتى سن معينة على الأقل ليس من المحرمات!.

زياراتي اللاحقة لعدن كشفت لي أن اغلب العدنيات أيضاً لا يجدن السباحة وإن "التمشية" على البحر والجلوس أمامه أكثر متعة من ممارسة السباحة!... ورغم كل هذا يجد أصحاب عدن متعة في الضحك على" الدحابشة[13]" وهم يعبرون عن فرحهم بالبحر حتى لو لم يجيدوا السباحة، وعن دخول النساء البحر بثيابهن السوداء!...

أدهشتني منى بمهارتها في السباحة، بعد أن اخترنا مكاناً منعزلاً، نشعر فيه ببعض الحرية في الحركة. شرحت لي ولميادة أن السبب هو عمل والدها في السلك الدبلوماسي خارج الوطن. وارتياد المسابح والسباحة على الشواطئ كان أمراً عادياً في كل البلدان التي تنقلت فيها فترة طفولتها... عدنا أدراجنا للحجرة للاستعداد لتناول طعام الفطور والانضمام إلى باقي الفريق في الفندق. ومن ثم التجمع في الباص لبدأ برنامج الرحلة. أروع ما في البرنامج أن كل أماكن الزيارة كانت من وإلى البحر. صعدنا الجبل لزيارة قلعة صيرة التاريخية،

كلمة انتشرت بعد شهرة مسلسل عن أصحاب المناطق الشمالية بشكل عام وأصحاب مدينة تعز بشكل خاص.

وتناولنا الغداء في سفحها ونحن مستمتعين بروعة منظرها. زرنا، أيضاً خليج الفيل، البريقة، ساحل أبين والغدير... (أماكن ستتجذر علاقتي بها وبسبب تسمياتها وتاريخيتها لاحقاً بعد تعدد زياراتي لعدن، التي لن أترك منها شبراً إلا وطأته قدماي، ربما كنت أبحث عن هشام! وربما كنت أجدد علاقتي به كل زيارة! أعود فيها خالية الوفاض إلا من تفجير الشوق لرؤية هشام في كل مرة!!!...)

مضت الثلاثة أيام المقررة للرحلة بسرعة البرق. اكتشافات مذهلة مرضية للجميع، (طلبة، طالبات ومدرسين) روح أخلاق عالية، تضحية في سبيل إسعاد الآخرين، إحترام لروح الجماعة وقبول الآخر... عاد الجميع بعدها منتشياً لاستقبال حياة أخرى، تجربة جديدة لخوض غمار المرحلة العملية بعد التخرج من الجامعة، التي ستفتح للجميع أفاق المستقبل.

كان طبيعياً أن يحدث ما حدث عند عودتنا من الرحلة. تناول الطلبة المعتنقون الفكر السلفي في مسجد الكلية خطبة طويلة بعد صلاة الظهر موضوعها الرحلة، هولوا فيها صغائر الأمور، جرموا التفكير فيها أولا! حرموا فيها الاختلاط، وتم الافتراء عن برنامج أتسم بالجدية والترفيه المنضبط المحترم، ليتحدثوا عن برنامج تمت فيه أشياء صورها لهم خيالهم المريض، وافقهم الضيق، يستحي المرء من مجرد مرورها على مخيلته، ويحرضه على احتقار تفكير لم يتجاوز منطقة "السُرة" وما تحتها، كما علق أحد الطلبة المغتاظين منهم!...

لم يدخل معهم عميد الكلية في مهاترات وردود كانوا يتمنونها ليضرموا بها النار التي ينفخون فيها بكل ما أوتوا من قوة لتشتعل!. استفزما حدث من تأويل وتحوير لمجريات الرحلة كل المشاركين وأنا أولهم، إلا أن الرد عليهم في حد ذاته كان سيعطيهم أهمية لا يستحقونها، وهم قلة، أغراضهم واضحة ولن ينطلي على من قاموا بالرحلة من متفوقين ومبرزين في الأنشطة وأعضاء هيئة التدريس كل ما يقومون به!.

رحلة كهذه لم تتكرر بعد ذلك، حتى الرحلات الضرورية لبعض الأقسام كالآثار والجيولوجيا، أصبحت نادرة ولا تتعدى - إن حدثت - ساعات قليلة ولمناطق قريبة!!!...

كان طبيعيا أيضاً أن أؤمن بعد كل هذا، بأن العصر الذهبي للجامعة في السبعينيات وحتى منتصف الثمانينات لن يتكرر. الفترة التي لا فرق فيها بين طالب وطالبة في تلقي العلم. فترة احترام المكان الذي أنت فيه، بدأ بكلامك عنه وارتداءك لما يناسبه، ومروراً بضوابط نابعة من الداخل لا يحتاج أن يكررها أو يمليها عليك أحد!!!... فترة تميزت بشكل واضح في النخبة التي أفرزتها خاصة من النساء. نخبة منهن تواجدت و تتواجد على الساحة الاجتماعية بقوة، ثقة في النفس، وسعي دءوب لما يفيد المجتمع. كن وما زلن مدعيات للفخر، تتكرر أسماؤهن وتتنوع مسؤولياتهن، يؤدينها بصبر واقتدار. بينما سيطر الانطواء، والخوف من الظهور بشكل إيجابي، والعمل في دائرة ضيقة مغلقة، على الأغلبية بعد ذلك. إلا في ما

ندر!... شعرت بذلك بعد أن تم تعييني معيدة في قسم الفلسفة بعد تخرجي. حيث يتم تعيين أوائل الخريجين كمعيدين في أقسامهم بعد عام من تخرجهم. كان ذلك في عام **1991**. بعد تعب وسهر أربع سنوات حصلت على مبتغاي ووضعت قدمي على أولى درجات سلم طموحي.

لم افتقد هشام كما حدث يوم حفل التخرج. حيناً أتخيله يصافحني مهنئاً مع عميد الكلية وأعضاء هيئة التدريس، وحيناً آخر أراه بين أبي وأمي وأشقائي على مقاعد الحضور، مبتهجا بتفوقي معهم، يرمقني بنظراته الحانية، ويغمرني بابتسامته الساحرة!!!...

كل ما استطعت معرفته بعد ذلك ومن أسئلة وجهتها لبعض أعضاء هيئة التدريس، لم تكن مباشرة حتى لا أثير فضولهم في البحث عن سبب سؤالي! أن هشاماً فعلاً طلب نقله إلى جامعة عدن، بعد قيام الوحدة ليكون قريباً من عائلته!!! لأن خروجه من عدن كان رغما عنه!.

لم أجد من اسأله بشكل أعمق وأكثر تفصيلاً! لم أعرف أي عائلة يقصدون؟ ولماذا لم يخبرني عنها يوماً؟ هل هي أمه الرائعة التي حدثني عنها وعن شدة حبه لها وأشقائه؟ أم هناك عائلة أخرى لا أعرف ها! كان دائماً كتاباً مفتوحاً بالنسبة لي! يسهل علىَّ قراءته! لماذا اشعر عكس ذلك الآن؟ لماذا تحول إلى لغز غامض لا أستطيع حتى فك حروفه لأقرأه؟...

آه! كم اكره هذه اللماذا التي لا أجد لها جواباً شافياً لكل ألآمي منذ أن رحل هشام!!!

...ماذا بعد!

تفوقي وحصولي على المركز الأول، التزامي وشعوري بالمسئولية طيلة الأربعة أعوام، حرصي على أن أكون جديرة بالثقة التي أولانيها أبي في تعاملي خارج إطار البيت، تعييني في الجامعة كمعيدة، تمهيداً لإعدادي بدراسة الماجستير والدكتوراه لأصبح أحد أعضاء هيئة التدريس!...

كل هذا لم يشفع لي أمام أبي، وأمام المجتمع الذي يخشى كلامه ويخشى أكثر أن يمس ابنته بكلمة سوء! أو تفكير سيء، ليمنحني الثقة التي تمنيتها ويسمح لي بالسفر لدراسة الماجستير خارج اليمن!... لم أكن غبية

لأكرر طلبي وابدي رغبتي في السفر بعد رفضه للفكرة شكلاً وموضوعاً في ما سبق. لكن ذلك ما استشفيته من مناقشة جانبية استدرجته فيها لمبتغاي الذي وصلني بعبارة واحدة، كانت أكثر وقعاً وأشد تأثيراً من سابقتها "البنت بنت، حتى لو حصلت على أعلى الشهادات!..."

أكد جملته هذه شقيقي الأكبر وهو يقنعه بضرورة قبولي الزواج من صديقه العزيز. لا سبب لرفضه كما فعلت في السابق بعد حصولي على الثانوية، بحجة إنهائي الدراسة الجامعية. نعم رفضته في السابق وسأرفضه الآن لذات الأسباب السابقة، شروطه التي وضعها في السابق وكأنه الرجل الوحيد في العالم، وأن رفضه هو آخر توقعاته. كل شيء غير ضروري للفتاة من وجهة نظرة العجيبة! التعليم! العمل خارج المنزل! التفاعل مع المجتمع!... كلها زيادة نعمة لا تستحقها، مادام مصيرها هو البيت وخدمة الزوج والأولاد!. قالها بمنتهى الجرأة كشرط أساسي للزواج.

لم يكن أبي ليرغمني على الزواج بالتأكيد، حتى لو أغضب ابنه الكبير الذي يشاطر صديقه أراءه ومنهجه وسلوكه في الحياة تجاه المرأة، لكني أنا التي بدأت أفكر بشكل آخر وأن هناك عوائق عدة علىَّ تخطيها لأحقق طموحي في التعليم والسفر ومعرفة العالم!... وهذا يتطلب أحد أمرين: إما وجود رجل متفهم قادر على استيعاب ذلك، أو التمرد على المجتمع والأسرة، والأخير سيجعل مني إنسانة أنانية تفكر في ذاتها وتدور حول تحقيق طموحها حتى لو كان من حقها، وهو ما لا أرضاه

لأسرتي أولا، وامقت بالمقابل النظرة الأخرى على أني متمردة! بعد أن كانت شهادة الجميع لي بالاتزان والعقل!...

اخترت أن أحقق ما استطعت في ظروف المجتمع التي لا يمكن تغييرها بين ليلة وضحاها، معتمدة حد اليقين على ذلك الشعور الذي يسيطر علىَّ باني سأحقق كل ما أتمنى، وسأبلغ بطموحي ذروته حتى لو تأخر الوقت!...

المقارنات التي كنت أعقدها بين حال الخاطبين لي بعد ذلك مع هشام، لم يكن أبداً في صالحهم. لكني كنت أجذر ذلك الشعور بعودة هشام وأمل لقاءه والارتباط به... لم تغادرني كلماته وتشجيعه لي بعد وفاة نادر، أجدها نافذة اطل منها بحرية، استنشق من خلالها هواء الصبر والعزيمة على السير قدماً... كنت أول المتقدمين لدراسة الماجستير. اخترت نفس تخصص هشام "فلسفة يونانية" أردت التوغل فيها كما فعل، سأبدأ من عبارة سقراط "أعرف نفسك" فبها أصر على ترسخ الفضيلة في مواجهة الرذيلة باستخدام أشرف الطرق وأنبلها إلى بلوغ الحقيقة!...

أردت أن لا يغادرني أبدا، في قراءتي وكتابتي وحتى مناقشتي لها بعد ثلاثة أعوام، لم يشغلني خلالها سوى الاحتفالات المتتابعة لزواج شقيقاتي الأربع، وحصار نظرات، يلسعني فضولها! لمدعوات يتساءلن لماذا تخطاني الدور؟ أنا الوسطى! خاصة في احتفال شقيقتي الصغرى! ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي اسأل

نفسي فيها، ماذا بعد؟ ماذا بعد ذلك؟ إلى متى سأضل أرفض الزواج؟ إلى متى سأصمد في إقناع أبي بمبررات يقبلها على مضض! إلى متى سيظل حب هشام مسيطرا علىَّ؟ شالاً لحركتي! معيقا لتفكيري! مقيداً لسير طموحي! إلا باتجاهه، باتجاه عالمه الذي أحلم به، عالم أكون فيه، ملكته! حبيبته! معشوقته! خليلته التي يتمنى!...

ماذا بعد! وأنا أوطد استعمار حب هشام لذرات كياني! أحفر ذكرياته! أرفع راياته! أُعبد أمنياته! أكتنز أسراره! أفترش آماله، أتوسد أحلامه!...

ماذا بعد! ماذا بعد! ماذا بعد!!!...

صرخات لبياض ينزف!

استنفذت كل مبرراتي للرفض! ليس لدي أي حجة لأُشهرها في وجه شقيقي! فيما لو أفلحت بإقناع أبي بتأجيل أو حتى إلغاء فكرة الزواج، خاصة بعد حصولي على الماجستير وتثبيت أقدامي كمدرس مساعد في الجامعة. ولا مجال لدراسة الدكتوراه! لأنها تتطلب السفر خارج اليمن الأمر الذي أعرف نتائج الخوض فيه مسبقاً!...

فكرت في كل هذا وأنا ألاحق وميضاً لعلاقتي بهشام! يظهر ويختفي كالبرق في مخيلتي! إلى أن تلاشى! وفي لحظة لم أعيها! لحظة سيطر فيها بياض على كل ما حولي! أطبق مخالبه على جميع حواسي! وقلت بعده "نعم": كلمة في ثناياها تناقضات عدة، كلمة ستكون سبب عذابي وشقائي! سبب دماري وهلاكي! هاويتي التي سأنعم على حافتها بالحرية التي حلمت، وسأرى العالم الذي تمنيت!...

- "لا ينقصه شيء، وجيبه عامر بالمال" قالتها أمي...

- "ابن ناس، من عائلة معروفة ومحترمه" قالها أبي...

- "حاصل على شهادة جامعية في الصيدلة، وإن مارس التجارة والأعمال الحرة، كبقية عائلته" قالها شقيقي...

- " لا تستعجلي، فكري جيداً، ليست فرصتك الوحيدة! أمامك فرص أخرى!..." قالتها سلى.

وحدها عبارتها كانت خاضعة لاعتبارات مغايرة لعباراتهم، ووحدها التي كان يجب علىَّ أن أفكر فيها بعمق، لكنى لم افعل! لم أفعل!.

أي فرص يا سلى التي تتحدثين عنها! وأنت تصغرينني بعام ونصف. متزوجة منذ أربع سنوات، بعد أن عشت قصة حب رائعة! ضللتك فيها روح نادر النقية الطاهرة! وإلى جوارك الآن ولدين وزوج يحبك بكل جوارحه! متفاني في إسعادك وإسعاد ولديه بكل ما أوتي من قوة!...

أي فرص تتحدثين عنها! وأنا على مشارف السابعة والعشرين عاماً، في مجتمع سأصبح في نظره عانسا مع مرتبة الشرف بعد أقل من عامين!. وسيبدأ في لوك سيرتي بالتحليل والمناقشة الجادة، المدهشة، المبدعة، ليبحث في أمر عزوفي عن الزواج وأسبابه! والنتيجة كم هائل من السلبيات المُفصلة بإتقان على مقاسي دون زيادة أو نقصان!.

هذه هي الفرصة التي أمامي! بعد الفشل الذريع لقصة الحب التي رجوتها أن تكون أساساً متيناً لعلاقة زواج

ناجح. ولا فرص أخرى غيرها! المهم أن لا أتنازل عن نجاحاتي، وأستمر في عملي! هكذا اشترطت للموافقة على الزواج. وفي أعماقي تمنيت نيل المزيد!...

رجل أعمال .Business man في الخامسة والثلاثين، سبق وأن خطب ابنة عمهِ وفسخت الخطوبة. "مشاكل عائلية! ومافيش نصيب!"... أربع كلمات موزونة، رصينة و لا غبار عليها! تشع أحرفها حكمة تُخجل عن السؤال في أسباب المشاكل التي حدثت أو في النصيب الذي لم يتم!. أربع كلمات اقنع بها العريس المنتظر الجميع!... أبي وشقيقي، اللذان لا أعرف كيف أو لماذا غضّا الطرف عن مسبباتها وهما شديدا الحرص في التقصي والسؤال كما فعلا مع أزواج شقيقاتي فيما مضى!...

سافر كثيراً بحكم عمله. تعامل مع بشر من كل الجنسيات. يجيد تحدث الإنجليزية بطلاقة. اعتقدت بعد كل هذا أن لديه وعي راق يميزه عن غيره، خبرة جيدة في الحياة. سيسهل ذلك التعامل معه وتكوين حياة زوجية ناجحة. مر كل ذلك عليَّ، إضافة إلى ما قاله أبي، أمي، شقيقي، وأنا أقول: نعم، أوافق على الزواج من سامي!.

هذا الزوج الحضاري، ألـ gentle man الذي رجوته من الحياة لأبدأ معه حياتي الأخرى، وأحقق معه كل ما تمنيت من أحلام لسعادة مرتقبة! وأمل لتحقيق طموح لم يكتمل. خيب ظني! قتل فرحتي! قضى على أملي! أجهز عليَّ في ليلة واحدة. ليلة لم يظهر لها فجر، تمخر عتمتها في أوصالي، يجثم ألمها على أنفاسي، ينخر وجعها تحت

جلدي. ليلة لا سبيل لنسيانها إلا إذا تم إقتلاع مركز الذاكرة من دماغي!...

ليلة تقاطعت فيها عباراته! اشتبكت مع بعضها، صعب علىَّ فهمها أو تحديد فيما إذا كانت تلك الفتاة التي أغوتها الجامعة وأخذتها منه، هي أنا أو فتاة أخرى! ولماذا - كما قال - كان عليه أن يقطع شكه بالبنات المتعلمات (الجامعيات خاصة) بيقين بكارتي، بلون دمها القاني الذي بقبق على بياض كرامتي الممرغة في وحل أفكاره القذرة!..

لم أجد لصراخي مجيب! ولا لاستنجادي مغيث! ولا لوجعي شافي! جسد يمزق غوره بعنف، ليبرئ إدانة لم تتم. تهاويت أنقاضاً صعبة الإعمار وقطعاً مستحيلة الترميم! أشلاء جسد يعاود اختراقها هذيان محموم، يقذف في أغوارها سموم شهوة آثمة، ويلقي بها كخرقة بالية بلا حراك!...

لم تخبرني أمي أن كل هذا سيحدث!... على الأرجح هي لم تخبرني بشيء! كما توقعت، كباقي الأمهات. اكتفت بوضع الخرقة البيضاء أعلى حقيبة ملابسي! لتعود إليها مزدانة بحمرة تزيد من بهاء بياضها، وتجعل رونقها متجدداً رغم مرور السنين! كخرقتها وخرقة أمها وخرق شقيقاتي الأربع، في ذلك الصندوق الصغير الذي تحتفظ به أسفل دولابها!.

أتذكر وصول خرقهن، شقيقاتي الأربع! صباح ليلة الزفاف، يعود بها أبي وشقيقي بعد زيارة خفيفة لكل واحدة منهن في الصباح الباكر! تنتظرهما أمي بلهفة،

تستقبلهما بقلق مصطنع! تفتح الصرة التي تفوح منها رائحة القُحطة والشذاب[14] تُخرِج الخرقة، تلقي بها على الأرض أمام جمع من
النسوة! قبل أن ترتفع زغاريدهن عالياً!...

لم يسألني أبي صباحاً عن سبب تعبي، وشحوب لون وجهي الواضح، اكتفى متباهياً بأخذ خرقتي وتقبيل جبيني بقوة، كأنه يشكرني على تلك الخرقة التي دفعت ثمنها غالياً! لم أكن اعلم أن لبكارتي كل هذه الأهمية! ولألق حمرتها كل هذه الفرحة! أنستهم السؤال عن نزيف دم، غمر بياض خرقتهم وأخفى ملامحها. كما أخفى بياض أعماقي إلى الأبد!!!...

أتساءل لماذا لم تخبرني أمي بكل ذلك! وهي تعلم حدود تربيتنا وثقافتنا في هذا الجانب! وفي الجوانب المتعلقة بالجنس عموماً، ولماذا لم تكن يوماً مثل أمهات صديقاتي غير اليمنيات: منال، أمها جزائرية كنت أحسدها في كل حضور لي وهي تحتفل بذكرى يوم مولدها على بساطة تعامل أمها معها وترتيبها الكامل للحفل!...

نجلاء، أمها مصرية، قارنت بين استقبال أمها لخبر بلوغها مبلغ النساء، بزغاريد فرحة، سبقها شرح واف ومفصل عن هذه المرحلة وأهميتها وأسبابها!... وبين

---

[14] القحطة هو الاسم الشعبي للحبة السوداء أو حبة البركة. الشذاب نوع من النباتات العطرية المستخدمة في المناسبات السعيدة.

أمي التي لم تهتم واكتفت بإعلامي بمكان تواجد الغيارات. وتوبيخي بشدة في شهر رمضان ب "قلة الحياء" لأني أتناول الأكل والناس صائمون أمام أبي وشقيقيَّ. أما سلوى وأمها الألمانية فكانتا مثالاً رائعاً، لي ولبقية صديقاتي في كل شيء، ربما لذلك لم يكن لسلوى صديقات كثر، لاكتفائها بصداقة أمها! عكسي، أنا التي لم أجد من يعوضني عن هذه العلاقة خاصة بعد زواج سلى، فتقوقعت في عالمي الخاص تقريباً بلا صديقات أو حتى صديقه أبوح لها بأسراري وأستشيرها في مشاكلي!.

لم أجرؤ حتى على سؤال أمي فيما إذا كان ما حدث لي في تلك الليلة الكئيبة، وما تلاها من ليال، هو طبيعي ويحدث بين الأزواج جميعهم! أم لا! وإن كان كذلك فلماذا كل هذا الألم والعذاب في علاقة يفترض أنها مصدر سعادة! متعة لا يشبهها شيء... لا يمكن أن يكون هذا هو السكن والسكينة!!! وإلا كان الحال سينتهي بجميع الأزواج إلى الانزواء عن العالم وعدم الرغبة في العيش! قبل الوصول ربما إلى عيادة معالج نفسي!!!...

لم يهتم سامي بتزيين صورته أمامي من البداية كما يفعل الأزواج! منذ شهر العسل الذي لم أذقه، وبداية تعرفي عليه وعلى عاداته وطبائع سلوكه، وكأن كل هذا لا يعنيه. بل إنني شعرت حتى أنا لا اعنيه! ولا يهمه قبولي لتصرفاته القاسية تجاهي من عدمه!. بدا لي متناقضاً وغريباً اقرب إلى المريض منه إلى الإنسان الطبيعي في بداية حياته الزوجية!...

لم اسلم من تصرفاته الغريبة، شكه الغير مبرر في سلوكي! بَدأها بمراقبتي أثناء ذهابي للعمل في الجامعة، إلى التنصت على مكالماتي الهاتفية، وانتهى به الحال إلى حرماني من الخروج بشكل نهائي من المنزل إلا برفقته!... احترت كثيراً فيما يجب عليَّ فعله تجاه تصرفاته الغير معقولة تجاهي!. انتقاصه من قدراتي الإنسانية أولا والعلمية ثانياً، ومن ثم منعي بعد فترة وجيزة من العمل في الجامعة!. سخريته من أسلوبي في الحوار معه بمنطق! لأفهم أسباب كل ما يفعله من تصرفات تجاهي! توبيخه المستمر وعدم رضاه على كل ما أقوم به من أعمال روتينية في المنزل رغم ما ابذله من جهد!. تجاهل رغبتي بل ورفضها لإجراء بعد التعديلات على المنزل وعلى أثاثه. إصراره على قضاء ليال تتحول إلى سجن يحبسني خلف قضبانه، لا يحترم فيها آدميتي، يلتهم فيها بشراهة رحيق جسدي، منتشيا ببعثرة علامات متعته على أجزائه، ضارباً بي وبمشاعري وحقوقي ودوي صرخات استنجادي برجولته، عرض الحائط!!!

" فترة وتعدي!"، " كل شيء في أوله صعب!"، " استحملي، ضغوط العمل كثيرة!". اووووف كم أمقت هذه العبارات لأمي وشقيقاتي. لولاها لنعمت بحريتي في وقت مبكر، لولاها لوفرت على نفسي عذاب كنت في غنى عنه! لمدة عامين لم أذق فيهما طعم الراحة أو أهنأ بهما، ولو بنوم ليلة واحدة دون منغصات متعمدة

ومختلقة، الأمر الذي يجعلك تشعر بالذل والمهانة، والبدء التدريجي في كره نفسك وربما كره المحيطين بك!.

لكني في المقابل كنت أخشى الفشل الذي لم أتعوده! في مسألة مصيرية كالزواج! ترتعد فرائصي لمجرد مرور فكرة الانفصال في مخيلتي. وأخشى أكثر أن أكون مطلقة في مجتمع تظل فيه المرأة المطلقة هي المسئولة عن أي فشل في تجربتها! ومنحها فرصة أخرى أمرا لا يتقبله إلا البعض!!! لهذا كان على أن أحب عبارات أمي وشقيقاتي، فهي وسيلة جيدة اختبر بها قدراتي على التحمل والصبر في الحياة مع سامي!.

عبارات لحكم وأمثال تتساوى أمام الإيمان بها وتطبيقها المرأة المتعلمة الواعية المدركة لوضعها والقادرة على تغييره لو أرادت، مع الأمية التي لا حول لها ولا قوة في تغيير أو إصلاح حالها إلا إذا أراد الرجل ذلك التغيير!!!..

هذا بالضبط ما حدث لي وكأنني إنسانة أخرى عليها أن تتقبل الوضع كما هو لأنه نصيبها، حتى لو كان هذا النصيب سبب تدميرها!!!.

كان هذا حالي قبل أن أعرف السبب الرئيسي لمعاملة سامي لي بهذه الطريقة! قبل أن أعرف المنعطف الذي تغيرت بعده حياته رأسا على عقب! وجاهد أن لا أعرف طيلة الستة أشهر الماضية من زواجنا!...

أشفقت عليه بعدها. حاولت استيعاب مشكلته ومساعدته على تجاوزها لنبدأ معا الحياة التي انشد وأتمنى! شعرت حد التوحد بقوة ومرارة الصدمة التي

تلقاها، وأفقدته الثقة في كل النساء، وسبب رغبته في الانتقام في شخصي! لأنها تشبه إلى حد كبير قوة ومرارة الصدمة التي سببها لي هشام! مع فارق أن سامي عرف أسباب رفض ابنة عمه له وقد تعاهداً على الوفاء والزواج! وأنا لم أعرف حتى الآن كيف ولماذا وأين اختفى هشام!!!

حاولت وتحديت نفسي أن أخفي عن سامي معرفتي بما حدث له كما وعدت شقيقته. أخبرتني بكل شيء لأنها أيضاً تشفق عليه بعد التحول الشديد الذي لاحظته كما لاحظه الجميع في سلوكه وتصرفاته! وتعلم أنني قد وصلت إلى مرحلة، الصبر فيها يفوق طاقتي وقدرتي على التحمل! حكت لي عن النصيب الذي لم يتم بينه وبين ابنة عمه، حبه الأول، أمنيته الوحيدة، وأمله الذي لم يتحقق!!!.

لأسباب تعنيها (ابنة عمه)، ورغم ما كان بينها وبين سامي من ود وتفاهم منذ الصغر، جذر في أعماق العائلتين رغبة مشتركة في ربط مصيرهما معاً، قالت: "لا! لست موافقة على الزواج، سامي ابن عمي و بمثابة أخي!..."

كانت عبارتها آخر توقعاته. هوت أمامه سنين عمره الجميل معها، ومراحله المختلفة... لعبة "عريس وعروسة" في الطفولة. نظرات إعجاب ومصارحة حب في المراهقة. خطبة باركها الجميع ووعد بالزواج بعد إكمال دراستها الجامعية...

في تلك الفترة وصلها الكثير عن علاقات غرامية متعددة لسامي. عن وعود أبرمها وأخلف لفتيات لا ذنب لهن إلا تصديقه لأنه "ابن ناس!". وصل الأمر بأحداهن مصارحتها بتلك العلاقة وإبراز عقد الزواج العرفي أمامها بعد أن تخلى عن وعده بإشهار الزواج بمنتهى السهولة، بل وإهانتها بأنها قبلت ذلك وأنه لن يتزوج إلا فتاة لم تعرف أحد قبله!. كان مطمئنا أن ابنة عمه موجودة ورهن إشارته في أي وقت وتتوفر فيها كافة شروطه. لذلك جن جنونه عند رؤيتها تحاور أحد زملائها في الجامعة في أحدى زياراته المباغتة لها، واندهاشها بل وصدمتها من طلبه وبطريقة فضة من زميلها عدم الحديث معها متجاهلاً وجودها تماماً ! غير مدرك للوضع الحرج الذي سببه لها بين الجميع! طلب بعدها من عمه إتمام الزواج وعدم ضرورة إكمال دراستها وكله ثقة في قبول طلبه!...

لم تقل أن سبب رفضها هو إهانتها بكلام جارح، وتشبيه سلوكها البريء جداً والمألوف جداً بأنه "قلة حيا" وفاتحة لعلاقات مشينة صورها له سلوكه، وكثرة مغامراته العاطفية بأنها ممكنة الحدوث مع كل النساء... ولم تبين أو توضح له أو لأهلها معرفتها بهذه المغامرات وشعورها بالإهانة من جرائها، وتفكيرها بشكل جدي في حياتها معه حتى لو كانت تحبه!!! بأنها ستكون حياة غير سوية مع شخص بعد تصرفه معها تأكدت انه فعلا غير سوي... لكنها قالت: "سامي ابن عمى وبمثابة أخي!!!".

رفض، لم يستسلم أمامه بسهولة... كرر طلبه أكثر من مرة تجرأ في أخرها أن يطلب من عمه إرغامها على الزواج منه، تنفيذا للوعد المتفق بينهما... عندها طلبت هي مقابلته والتفاهم معه. مقابلة لم يعلم أحد ما دار فيها، لكنها أنهت كل شيء!...

قرر بعدها سامي صرف النظر عن الزواج والتفرغ للعمل وربما لمزيد من المغامرات لمدة عامين، إلى أن سمع من شقيقته التي كانت أحدى طالباتي في الجامعة بإلحاح عني، وعن انبهارها الشديد بشخصيتي، أدائي في المحاضرات، معاملتي المتميزة للطلاب، اختلاف طرحي للمواضيع ومناقشتها...

أظنه كان يبحث عمن تفوق ابنة عمه علماً وسمعة طيبة، لأن زواجها في نهاية دراستها الجامعية بأحد زملائها كان معناه في قانون سامي، أن ثمة علاقة حدثت وإعجاب متبادل أفضى إلي قصة حب انتهت بالزواج وهو ما يعتبره سمعة سيئة لابنة عمه، وربما حمد الله أن الزواج منها لم يتم!...فأنا أفوقها علما وسمعة في تفكير سامي الغريب! لأني حتى حصولي على الماجستير لم أمر بقصة حب أو يسمع أحد عني بل على العكس تماماً!... (يبدو أن العزلة التي فرضتها على نفسي وعلى قلبي بعد غياب هشام فسره كلا على هواه!)...

فإذا كنت كذلك فلماذا هذه الرغبة الشديدة في الانتقام مني! في تعذيبي بهذه الطريقة! في تماديه وعدم تقديره لتضحيتي وتحملي لكل ما يقوم به! ربما فسر كل ذلك بأنه ضعف واستسلام، ولم يتبادر إلى ذهنه أنها رغبة صادقة في استمرار الحياة بشكلها الطبيعي بيننا، وبأني

أحلم بالعائلة الهادئة المستقرة، والأولاد الذين سيملئون حياتنا سعادة... الأولاد الذين لم يثر فضوله يوما سؤالي فيما إذا كنت أحمل في أحشائي جنيناً أم لا! مثل باقي الرجال خاصة بعد مرور العام الأول، دون ظهور بوادر تدل على وجود حمل، لكنه أكتفي بتوبيخي بل وإهانتي وأنا اطلب منه استكمال الفحوصات التي طلبها الطبيب لكلينا ليعرف سبب عدم الإنجاب، بعد أن أكد أنني لا أعاني من أي مرض يمنع الحمل!...

بعد طلبي هذا أصبح سامي شخصا لا يطاق، عصبيته لا تحتمل، تصرفاته تجاهي وتجاه الآخرين خارج سيطرته... يذرف بعدها اعتذارات لا تحصى للجميع عداي!...

أصبحت أخشى قدوم الليل، أخافه، يسبب لجسدي رجفة لا أستطيع التحكم بها، يزيد من وتيرتها شعوري بتعمده إيذائي، بتلذذه في سماع صراخي، يصل إلى مرحلة يفقد سيطرته على أفعالة المجنونة تجاهي، لذة غريبة في تعذيب جسد يتلقى كل ذلك قرابة عامين ولم يصل للمتعة التي قرأت عنها، أو النشوة التي تتغامز بها النساء!...

تمنيت أن يقدر كل ذلك، أن يتفهمه، أن تصله الرسالة التي أردتها من تركي للعمل في الجامعة ومن تأجيل دراستي العليا وتحملي لكل أوزاره على كاهلي. دون فائدة...

سعيت بعدها لتكوين عالمي الخاص، عالم اهرب إليه من كل منغصات سامي التي لم تتوقف يوماً، عالم

القراءة والرقص... هوايتان قديمتان أنقذتاني من هاوية الوقوع في براثن الاستسلام لخطط سامي لتدميري.

أعدت قراءة مكتبتي القديمة، وحرصت على شراء الجديد في كل المجالات. بدأت أفكر بشكل جدي في مواصلة دراستي العليا ولو بالتفكير بالموضوع وتغذيته في أعماقي. أما الرقص فعشقي له لا يوصف، إتماهى فيه بشكل جنوني، أغيب فيه حتى عن نفسي، تمايل جسدي وتفاعله مع الموسيقى وسيلة نافعة ليخرج كل ألمه وجراحه!...أتقن وببراعة جميع أنواعه، منذ صغري أسمع كلمات الإعجاب. بدأنها صديقات أمي اللاتي كن يطلبن مني أن أُعلم بناتهن، أن أجعل أجسادهن المتخشبة تتمايل كأغصان الشجر اللينة، عندما تحركها نسائم الربيع بلطفها ورقتها الساحرة. لكني كنت أتدلل عليهن وأتفلسف - كما يقلن - وأنا أذيل كلامي بعبارة "الرقص لا يحتاج لتعليم، انه إحساس"...

سبب انشغالي بالقراءة والرقص لسامي قلق لم أفهم سببه، حصار ومحاولة لمنعي بطريقة لم أجد لها تفسير، كل هذا جعلني أتساءل إذا كان الدوران حول سامي وتنفيذ رغباته التي تفوق تحملي ومع ذلك فعلتها لم تنفع معه!. ومنح نفسي مساحة أتنفس فيها وأجد فيها ذاتي كالرقص والقراءة لم تنفع أيضاً! فكيف يمكن إرضاء هذا الرجل؟ كيف يمكن اتقاء شره وإصراره بتعمد على إيذائي؟؟؟

أقسم أنه كان بإمكاني أن أتحمل المزيد مادمت قادرة على ذلك. كان خوفي الشديد من كلمة مطلقة يجعلني

أبحث عن منافذ كثيرة للبقاء مع سامي!. لولا تعديه على آخر رمق لكرامتي التي تلذذ لعامين كاملين بامتصاص رحيقها من أوردتي وشراييني!... لولا ما فعله عند مراقبتي ذات يوم وأنا غائبة تماماً في الرقص الشرقي! لم يكن ذلك الرقص كما قال "زوربا اليوناني" بطل الرواية الرائعة لنيكوس كازنتزكي "زوربا" (هز بطن)... كان أكثر من ذلك بكثير بالنسبة لي. يكفي أنك به تتحدى كامل أجزائك بقدرتها على أداء كل الحركات، وتحرضها على الإستمرار وبإبداع يفوق استيعابك له لفترات كثيرة يراودك الشعور بأنك لا زلت عاجزاً عن أدائها!...

أمسك سامي بشعري، أفقدني الحركة، تلفظ بقاموس من البذاءات، إتهمني بأبشع الإتهامات أبسطها: رقصي الذي يشبه العاهرات، ثم أطلق ليده العنان في ضربي لأول مرة!... كم كان قاسياً، مدمراً شعوري بإهانة الضرب!!! كان ما فعله في العامين في كفة وضربه لي في كفة أخرى تماماً!...

لم يجدني في ذلك الصباح الذي أستيقظ فيه وهو على ثقة أنني قد سبقته في الإستيقاظ وتجهيز فطوره وبدلته كالعادة قبل ذهابه لمكتبه. وكأن شيئاً لم يكن!... جاء إلى منزل والدي مباشرة وهو في حالة يرثى لها. لم يحلق ذقنه، ثيابه على حالها منذ البارحة!. لم أخبر أحد بما فعله لكني إنفجرت في وجهه وهو يقول لوالدي أنه لا يعرف سبب مغادرتي للمنزل: "أنت أكثر دراية بما فعلته، أريد

الطلاق، لن أعود معك مهما فعلت! لن أعود، لن أعود!...".

في اللا توقع

ضوضاء تتداخل فيها الأصوات، تتشابك فيها نهايات الحديث، يصم أذنيك دبيب أقدام على أرضية جافة، خطوات متتابعة سريعة لا تعرف إلى أين تتجه! رائحة غريبة تكاد تخنقك! تخدرك! تسلبك حواسك واحدة تلو الأخرى!

كل هذا! وأنا أين أنا؟ لما أشعر بكل ما حولي، يكاد يلامسني و لا يمكنني رؤيته؟ لا أستطيع حياله شيئاً، أين أنا إذا؟ وهل لا زلت على قيد الحياة؟ أم أنني الآن في العالم الآخر؟

أظنني قرأت شيئاً مماثلاً لما أمر به... نعم إنها لقاصة يمنية تدعى "نادية الكوكباني". أسمتها إن لم تخني الذاكرة "مزحة" نالت إعجاب كل من قرأها بمن فيهم أنا!. أكثرهم إعجاباً بها وبتقنياتها هو الدكتور حاتم الصكر أستاذ الأدب العربي الحديث والنقد في جامعة صنعاء، يدرسها بإنتظام لطلابه في قسم الإعلام حتى أن اسم القاصة تحول إلى "صاحبة مزحة"، لدى طلابه. بطل مزحة كان ميتاً، ومر بحالة تطابق ما أمر به الآن!

هل يعقل ذلك؟ هل أنا ميتة الآن؟ وهذه مراسيم دفني؟ لكن أين اللحاف الذي وضع على وجه بطل مزحة ليؤكد موته؟ أين عبارات العزاء؟ وكلمة "البقاء لله" التي انتهت بها القصة؟ أشياء كثيرة تنقصني من أحداثها!.

إذا أنا لست ميتة؟ أنا على ما يبدو لا أستطيع تحريك جسدي أو فتح عينيَّ! لماذا؟ لا أعرف، وأين أنا أيضاً، لا أعرف. ومتي سينتهي هذا؟ لا أعرف! لا أعرف حقاً لا أعرف !!!

خَفَّت حدة الضوضاء من حولي فيما عدا ذلك الصوت الهادئ الذي يعلو جسدي الممدد: "نجت بأعجوبة! المسكين أمل إنقاذه ضعيف".

من هي تلك التي يتحدثون عنها؟ وهمّ نجت بأعجوبة؟ ومن هو ذلك المسكين؟ ومما سيتم إنقاذه وكيف؟ من

سيجيب على أسئلتي؟ من سيساعدني على فك طلاسم كل ما أمر به الآن؟ والأهم من سيؤكد لي أنني ما زلت أملك جسداً، راس وجذع وأطراف كما علمونا في أول دروس للعلوم في المدرسة الابتدائية!

لا أعرف كم يوماً مر على في هذه الحالة! كم يوماً أمضيت وأنا أمر بهذه المتناقضات وبهذا الشعور الذي صعب على تحديد بدايته ونهايته! لكن المهم الآن أنني فتحت عيني! وهاهو جسدي يستجيب لأوامري بالحركة ولو ببطء شديد. أدركت أن جسدي الممدد على أحد الأسرة في حجرة يلفها البياض قد أصابه سوء! أنابيب التغذية المزروعة في أوردة يدي، أجهزة أخرى إلى جواري تقول ذلك!. الممرضة الفرحة التي قدمت باتجاهي عندما فتحت عيني، بابتسامتها المشرقة وهي تردد "حمدا لله على السلامة، كتب لك عمر جديد!" أيضاً تؤكد ذلك!

أغمضت عيني هذه المرة بإرادتي، قد أستطع إيجاد تفسير لكل ما يحدث حولي! ربما يمكنني الربط بين أجزاء الكلام الذي وصلني سابقاً ويصلني الآن عبرها شعرت بحرارة الدموع التي تساقطت على خدي لتعبر عن عجزي التام عن فعل أي شيء حيال ما أنا فيه! شعور فظيع، مؤلم، تمنيت فيه أن أصل إلى ما وصل إليه بطل قصة مزحة. قد تصلني الراحة التي انشدها.

مرت أيام لا أعرف كم هي، أبدى خلالها جسدي مقاومة جيدة وبدأ في استعادة مهامه، يؤديها بشكل طبيعي، فيما عدا رجلي اليسرى المختفية كلياً داخل

الجبس الأبيض الذي يعالج به الكسور!. قالت الممرضة عندما رأتني أحاول تحريكها: "ليس الآن، بها ثلاثة كسور، لقد وقعت على جانبيك الأيسر!...".

وقعت! أنا! من أين؟ والى أين؟ وكيف لم أشعر بهذه الوقعة الشديدة التأثير إلى هذا الحد؟ تعمدت أن لا أسأل الممرضة عن أي شيء! كنت أخشي أن تقول ما يؤلم وأخشى أكثر تذكر شيء ما! فجيعة ما! توقع مسبق لمأساة أعرف أنها حدثت سترعبني تفاصيلها! ليس هذا فحسب، شعور أكيد بأن هناك ما سيقلب وضع حياتي وسيغير مجراها للأبد!.

أمقت ذلك الصباح الذي استيقظت فيه على إثر كابوس مرعب، وأنا أصرخ: "انتبه! انتبه! انتبـ!... انتـ!..." هرعت الممرضة باتجاهي وهي تحاول تهدئتي، كان العرق يغمر وجهي ويبلل ثيابي، جسدي يرتعش، يبدي مقاومة فات أوانها، ويهرب من قدر تم تنفيذه!

للتو، استعدت اللحظة التي توقف عندها كل شيء! اللحظة التي أنا بسببها هنا الآن! اللحظة التي أخطأ فيها سامي واختار تفرع طريق الراهدة بدل تفرع طريق عدن! وأضطر حال اكتشافه للأمر أن يعود أدراجه ويصحح خطأه! لم يهدئ السرعة، لم ينظر حتى للمرآة ليعرف من خلفه! لف مقود السيارة بالاتجاه الآخر، فقدت السيارة توازنها، خرجت عن خط مسارها، انقلبت، سيطر فزع العالم على كل ذرة في جسدي. شعرت بارتطامه وأنا محشورة داخلها على الأرض! ولم أع ما حدث بعد ذلك حتى هذه اللحظة!

يا الهي، سامي! أين سامي؟ سألت الممرضة التي تلعثمت و ارتبكت!. أعدت سؤالي عليها وقد علت حدة صوتي! ولو أنه بدا مرتعشاً، وكنت غير قادرة على السيطرة على وتيرته! أين سامي!؟ اقتربت مني أكثر، أمسكت بيدي وهي تضغط عليها لتهدئتي قائلة: إهدئي، حتى الآن هو بخير، في العناية المركزة، حاول الخروج من السيارة، أرتطم جسده على صخرة كبيرة، سببت له نزيفاً داخلياً في الكبد وتفتُتاً في جزء منها، جسده حتى الآن لا يتجاوب مع الأدوية! رغم نجاح العملية التي قام بها دكتور ألماني متخصص يزور المستشفى. أدعي له بالشفاء.

كم كنت بحاجة في تلك اللحظات إلى أن أدفن رأسي في حضن سلى، وأبكي ما شاء لي القدر أن أفعل ذلك. كم كنت بحاجة إلى أبي وأمي وأشقائي، لكن أين أنا وأين هم! أنا الآن في مستشفى الصداقة في منطقة الشيخ عثمان، أقرب مستشفى تم إسعافنا أنا وسامي إليه! منذ ما يزيد عن الأسبوعين كما أخبرتني الممرضة.

الجميع سيعتقد بأننا في عدن، ونقضي شهر عسل جديد، ولا نرغب في الإتصال بأحد. لن يتبادر إلى أذهانهم الحادث الفظيع الذي أصابنا!. قررنا زيارة عدن أنا وسامي، كان قبلها قد تردد كثيراً على منزل والدي طالباً عودتي لمنزل الزوجية، وفي كل مرة يقابل طلبه بالرفض، رغم ما كان يبديه من تهذيب شديد في أسلوب حديثه! يشعر تجاهه أبي بالخجل، متهما إياي أحياناً بالمبالغة في ادعاءاتي نحو زوجي.. بدا لي سامي في

المرات التي وافقت على أن أحدثه فيها مختلفاً بالفعل! تخلى عن عنجهيته واستعلاءه في الحديث معي. أكد أنه يحبني ولا يستطيع الاستغناء عني. أعتذر عن كل تصرفاته وأفعاله القاسية نحوي...

شرح لي أسبابها، حكى لي ما لم أتوقع يوماً أن يحكيه، ولي بالذات. شرح لي وهو لا يعلم أنني أعرف عن الصدمة التي تلقاها من ابنة عمه وعن ثقته التي تسربت من بين حنايا قلبه في كل النساء. والأهم من هذا كله عرفانه بجميلي ونبل تصرفي معه على أمل تجاوز محنته، وأن أبدأ معه الحياة الزوجية الطبيعية الخالية من أي مؤثرات.

لم أصدقه، طلبت منه مهلة للتفكير، فترة أطول أستريح فيها! وربما أستوعب فيها في أن ذلك هو سامي بالفعل أم أنني أحلم! حتى هذه - ويا للعجب - لم يرفضها، ووعد بتلبية كافة شروطي، التي قلتها وكلي ثقة أنه لن يوافق عليها: استئناف عملي في الجامعة، استكمالي للدراسة العليا، عودة علاقتي بالمجتمع والناس بعد أن انقطعت قرابة العامين.

يبدو أن سامي كما أكدت شقيقته، تغير بالفعل حتى مع كل المحيطين به. يشعر بقيمة الشيء الذي بين يديه وفي قبضته عندما يفقده. هزه ربما طلبي للطلاق. لم يتوقعه، أزال بطريقة أو بأخرى صدأ أعماقه، ليظهر بريق معدنه الطيب واصله النبيل!

وصلني صِدقه ورغبته الشديدة في بدء حياتنا معاً من جديد. كأن العامين الماضيين لم يكونا، ولم نمر كلينا

بقسوة ما مررنا به. اختار عدن لنقضي فيها شهر عسل جديد رغم الظروف الصعبة التي تمر بها عدن وصنعاء في تلك الفترة منذ أوائل العام **1994**. مرحلة حرجة، خلافات سياسية، وساطات دولية وعربية لحلها. ورغم عدم اهتمامي أو متابعتي لها، إلا أنني اظن أنها خطيرة و تهدد بشكل مباشر الوحدة التي ظفر بها الشعب اليمني، بل وتهدد استقراره على أرضه!

دعوت لسامي كثيراً بالشفاء، ليكون أقوى من المرض. كنت أحدثه عن حياتنا القادمة عندما سُمح لي بالحركة لزيارته، الغيبوبة التي دخلها لا تجعله يعي شيئاً أو يتعرف على أحد!. تتم تغذيته بالأنابيب دون حركة تذكر من جسده! كانت رؤيته بهذه الحالة موتاً بطيئاً لي. شعور قاسي ومؤلم، لا يمكنني وصفه ولو بأبلغ الكلمات. لم أتمكن حتى من الاتصال بأهلي لطمأنتهم بسبب اشتداد الأوضاع في صنعاء وعدن في أواخر نيسان - ابريل **1994**.

وحيدة تلقيت الخبر الأليم، المفجع، الخبر المدمر لكل أحلامي المستقبلية في الاستقرار! لم أستوعبه في البداية، بحلقت في الدكتور الذي حاول تخفيف وطأة الصدمة عليَّ. دخان كثيف شعرته يخرج من جسدي، غطى على كل ما أمامي، لم أعد أرى شيئاً. سواد مبهم لفني في زوبعته وألقى بي في جهنمه، صهرني وأعاد تشكيلي آلاف المرات ليغرس حقيقته المرة في كامل جسدي، متلذذاً ببركان الألم المسال منه.

"أنتِ قوية، يجب أن تتفهمي الموقف، نحن حاولنا جهدنا طيلة ثلاثة أسابيع دون فائدة، ربما، لو لم يحاول الخروج مثلك، كانت إصابته اخف! لكنه قضاء الله وقدره. عظم الله لك الأجر، والبقاء لله..."

يا إلهي، هاأنا أستقبل خبراً مؤلماً كهذا وحيدة؟ بعيدة عن كل أهلي ومعارفي وصديقاتي! أي قوة هذه التي يتحدث عنها الطبيب؟ وكيف أعبر عنها؟ هل بعدم الصراخ؟ أم بعدم البكاء؟ حتى لو فعلت ذلك وظهرت أمامه قوية، فما يعتريني في هذه اللحظات لا يضاهيه إلا لحظات سماع خبر موت نادر منذ ما يقارب الستة أعوام!.

الطبيب لا يعلم أنني فقدت سامي في ذات اللحظة التي استعدته فيها! انتهت الحياة التي حلمت بها قبل أن تبدأ! تناقض غريب! أقف أمامه عاجزة عن التفكير، لا أعرف في أي شيء! كل ما أعرف أنني بحاجة إلى أن أفقد الذاكرة التي بسببها سيرافقني الألم، سيمسك بتلابيبي، سأتحول إلى توأم روحي له على ما يبدو مدى الحياة!.

كل ما استطعت فعله كان وداع سامي وهو في بياض كفنه. أطلت الوقوف أمامه، سامحته من أعماق قلبي الذي بدأ يخفق لعذب كلماته ورقة تصرفاته نحوي قبل السفر!. تمنيت لو كنت إلى جواره الآن! لو أخذنا الموت معاً، وهو الذي منعنا من الاستمرار في الحياة معا! هذا كان جل ما ننشد خاصة بعد تغيرات سامي في الفترة الأخيرة. يبدو أن إحساسه بدنو أجله كان أقوى، ليفارقنا وفي قلبنا حسرة عليه!

لا أمل ولو بسيط في دفن سامي في صنعاء لصعوبة نقلة. لقد قطعت الطرق تماماً. هناك أخبار مؤكدة عن تبادل إطلاق النار! وزعزعة أكيدة وانقسام بين صفوف الجيش في المعسكرات المحيطة بصنعاء وعدن كما أكد لي الطبيب. لذلك وافقت على دفن سامي في عدن!.

إستمر بي الحال في المستشفى لعدة أيام. لم يكن أمامي خيار في التنقل أو الذهاب لأي مكان. وأين يمكنني الذهاب وأنا لا أعرف أحداً في عدن! ولا أرغب في فجيعة أهلي وأهل سامي في هذه الظروف الصعبة!. كان المثل القائل "موت وخراب ديار!" ينطبق علي تماماً. لم أكد أفق من صدمة وفاة سامي، حتى زأر خبر اندلاع الشرارة الأولى للحرب في بدايات مايو **1994**. بعد أسبوعين تماماً زأرت رغبة الساسة في الجنوب بالانفصال. أطلقت عليهم بعد ذلك وسائل الإعلام فيما بعد "الانفصاليين"! لأن هدفهم هو القضاء على الوحدة بعد أن تحققت وناضل الشعب كثيراً ليحققها..

غريبة جداً السياسة، تدخلك في دائرة التحليلات التي تشعر أنك تفهمها! ولا تفهمها في ذات الوقت، تكرهها ولا تكره أن تعلم ما يدور حولك في العالم، تشعر أن قمة الحماقة أن تجهل أمراً له أهمية كبيرة في الحياة... إنها فعلاً "فن الممكن" كما يطلق عليها الساسة الغربيين **art possible of** . وغريب هو الوضع الذي تمر به صنعاء وعدن، حالة من الغموض سبقها عام مليء بالمهاترات والمصالحات التي كانت في عدة دول أشهرها "وثيقة العهد والاتفاق" في الأردن، التي وقعت عليها جميع

الأطراف السياسية اليمنية، قبل حوالي شهرين من إندلاع الحرب. الحرب التي أنا الآن بسببها غير قادرة على الاتصال بأهلي، غير قادرة على تحديد ما يجب علي فعله، وكيف يمكنني أن أتصرف في كل ما أمرّ به، وأنا لا أعرف أحداً في عدن يمكنني اللجوء إليه أو طلب المساعدة أو حتى الاستشارة!.

شفيت تماماً فيما عدا الجبس في رجلي اليسرى وهذا يمكنني نزعه بنفسي بعد إنقضاء المدة المقررة له. طلبت من الطبيب البقاء في المستشفى للمساعدة لأن لدي خبرة في الإسعافات الأولية. لا أدري لماذا رفض! وبإصرار، رغم أنني حاولت أن يصله ظرفي الخاص جداً في عدم وجود أقارب لي في عدن لأذهب إليهم. وطلب منى المغادرة في أقرب فرصة.

همست المريضة في السرير المجاور لي (مالك منو يا بتي[15]هذا مكانو من أيام "عدن للعدنيين!") لم أفهم ما قالته الخالة "أم زياد" ربما لأنني لم أكن قد قرأت بشكل جيد عن تاريخ عدن، ولم أسمع حتى بعبارتها تلك. لكنها شعرت بي وبهمي الكبير. قالت إنها ستغادر غداً بعد أن أكد لها الطبيب أن جرح استئصال الزائدة الدودية التي أجراها قد شُفي تماماً، وهي على استعداد تام لأن تستقبلني في منزلها. فهي تعيش وحيدة فيه، فضلت السكن لوحدها بعد زواج أولادها الستة الذين يتناوبون على زيارتها بشكل دائم وتلبية كافة طلباتها، وستكون في

---

[15]. يا ابنتي باللهجة العدنية

غاية السعادة باستقبالي لحين تمكني من التواصل مع أهلي!...

لم يكن أمامي خيار آخر على أية حال! وافقت ورافقت أم زياد إلى منزلها. ممتنة لكرمها وطيبتها الزائدة وشعورها بي وبصعوبة ظروفي. رافقتها لمنزلها، ينكأ في داخلي ألم غائر وخوف مما سيحدث وما ستنتهي إليه هذه الحالة.

الشيخ عثمان

حتى اللحظة التي وصلت فيها منزل الخالة أم زياد وأنا غير مدركة لكل ما يدور حولي. أحداث مؤلمة تدحرجني أمامها، في طريق لا أعرف له نهاية! في إنتظار أن أرتطم بجدار الكابوس، لأصحو من هذا الحلم الغريب! آه كم أتمنى أن يكون فعلاً حلماً، وأن هذه الأحداث ما هي إلا أضغاث أحلام لا مفر منها ستنتهي بالاستيقاظ، والعودة لممارسة الحياة الطبيعية.

كم أتمنى أن أصحو بعد كل هذا الألم على رائحة القهوة التي تدغدغ انفي، وسلى ممسكة بالفنجان أمامي، يتسرب إلى حواسي صوتها الملائكي وهي تقول لي: (صباحك فل، فرح). كم أتمنى! كم أتمنى! كم أتمنى!.

مفاجأة المفاجآت كانت بالنسبة لي أن منزل الخالة أم زياد يقع في منطقة الشيخ عثمان، لا أعرف بالتأكيد ما يخبئه لي القدر في جعبته من هذه الصدفة الغريبة، ولا يمكنني تفسير هذه الصدفة بأنها لصالحي أو ضدي، لكنها من الأشياء التي تمنيتها وحلمت بها طويلاً! حتى لو كان ذلك منذ زمن، منذ أن حدثني هشام عن منطقة الشيخ عثمان، بيته الذي عاش فيه أروع سنين عمره، حارته التي لعب فيها، أصدقاؤه الذين شاكسهم بمقالبه في المدرسة، ذكرياته الحميمة التي تطفح منه كلما تحدث عنها.

منذ ذلك الحين وأنا أتمنى زيارتها، الطواف حول أركانها، الضياع في شوارعها أو على الأصح أقسامها الأربعة، ألف، باء، جيم، دال، التي ظلت محتفظة بإسمها منذ إنشاءها كمدينة لعمال منطقة استخراج الملح من المنطقة المعروفة باسم أحواض المملاح، وذلك أيام الاحتلال البريطاني لعدن، كما حدثني عنها هشام.

حدثني أيضاً وبحميمة عن أيام زيارة ضريح السيد الهاشمي، الذي يقع في الحافة[16] التي يطل عليها منزل الخالة أم زياد. أسهب في سرد أدق تفاصيل الزيارة وان أروع ذكرياته كانت فيها، ما جعلني أتخيلها وكأنها تحدث أمامي، في أحدى لقاءاتنا التي لا تنسى في حديقة منزله في صنعاء، كما أتخيلها الآن وأنا أطل من شرفة الدور الرابع لمنزل الخالة أم زياد. كم كنت أعشق حديثه هذا! كم كنت أنصت له وأرغب لو يستمر فيه إلى ما لا نهاية، كما يقول علماء الرياضيات! كم كانت ضحكته مجلجلة بهية وهو يتذكر ويحكي مقالب أصدقائه، كم كان شوقه وحبه لعدن ولمنطقته عظيماً، كعظمته وروعته.

آه هشام أين أنت! لو تعلم كم إشتقت إليك وإلى حديثك الذي لا يُمل، إلى النقاش معك في جديد ما اقرأه أو اسمعه، إلى الهذيان أمامك في كل ما يتعبني من أحوالي مع نفسي ومع البشر من حولي!.

هشام يا حلماً أحبه، أعشقه، أذوب فيه هياماً. يا حلماً في كل يوم تشرق فيه الشمس ثم تغرب، إلا أنت،

16الحارة باللهجة العدنية.

فشروقك في نفسي لا يعرف كيف يغيب! وشمسك في أعماقي لا تعرف الغروب... ضوءها من ذرات حب يتفجر بأمانٍ كثيرة، أمان لك! أمانٍ معك! أمانٍ تبدأ وتنتهي بقلبي الذي تسكنه وستسكنه حتّى الموت!...

ها أنا أعرف من أم زياد أشياء كثيرة أجهلها تماماً بعد أن أزعجتها دو ن خجل بأسئلتي التي لم تجد أمامها إلا الرد لإشباع جزء من فضولي!، فالهاشمي: هو اسم لأحد الأولياء الأربعة الذين اشتهروا بزيارة أضرحتهم مثل "ضريح ومسجد العيدروس في منطقة كريتر"، "العثماني في منطقة الشيخ الدويل"، "ضريح سفيان في قرية تقع بين لحج وكرش"...

زيارة هذه الأضرحة هو عيد ثالث لأهل عدن بجانب عيد الفطر وعيد الأضحى أو كما درجت العادة على تسميتهما بالعيد الكبير والعيد الصغير، ليس في عدن فقط ولكن في كل البلدان الإسلامية.

تتم زيارة ضريح السيد الهاشمي في اليوم الخامس من عيد الأضحى. يستعد له الناس بملابس جديدة خاصة الأطفال. أما النساء فلابد لهنّ من النقش بالحناء لهذه الزيارة، على ظهر وباطن الأيدي والأرجل. يتم السير مع (خدام الولي) وهم يحملون الأعمدة الحديدية اللماعة التي يطلقون عليها "البيارق" وعلى رؤوسها أعلام ملونة وبعض قطع من الحديد تشبه (خلخال النساء) بها زوائد تحدث أصوات موسيقية، ويسير بها (خدام الولي) في الشوارع حتى يصلوا إلى مقر المزار.

على مساحات واسعة يضرب أصحاب الأنشطة التجارية من البائعين (الأكشاك) من الخشب ومن القماش المرتكز على الأعمدة على شكل مربع، لتقع وسط تلك المساحات الكبيرة والمدورة، المراجيح المختلفة الأحجام التي كانت ضالة كل الأطفال، وكل الكبار بسبب تنوع أحجامها، ومصدر سعادتهم. إضافة إلى الألعاب السحرية التي كانت تبعث الرعب والاستغراب في أذهان المشاهدين لها وتظل عالقة بأذهانهم عاماً كاملاً، حتى تأتي خدع أخري أكثر رعباً في العام الذي يليه!، لتصبح خدع العام السابق أمامها لا شيء.

سباق الجِمال هو وإحدى أركان ركائز يوم الزيارة، فيتم من الظهيرة خارج هذه المساحات المزدحمة التي تعج بالزائرين. انه يوم الزلط[17] ويوم الحلوى ويوم اللقاء بين الناس من كل أنحاء عدن، يوم لقاءهم وطوافهم للتبرك حول ضريح الولي المزين بالقماش الأخضر المذهب، فذلك عون لهم على حل المشاكل وشفاء الأمراض وتحقيق الأماني المستحيلة التي يهمسون بها في طوافهم، وهم يمسحون بأيديهم على القماش، ثم يمسحون على صدورهم، قبل تقبيله ووداعه!...

هكذا أنهت كلامها الخالة أم زياد، عن زيارة الهاشمي وقد انفرجت أساريرها هي أيضاً، كأنها عادت للوراء ولتلك الأيام التي تقول عنها: جميلة ورائعة رغم إدراك بعض المثقفين في عدن بأن تشجيع مثل هذه الزيارات

---

[17] **المال**

للأضرحة وعدم منعها كما يقال: بفعل الإستعمار البريطاني الذي كان يبحث عن أي مظهر من المظاهر الاجتماعية والدينية أو ما يدخل في إطار المفهومين معاً، ليجذره في أعماق الناس على مدى السنوات المتلاحقة لتحقيق نوع من الاعتقادات الهزيلة في نفوسهم بغرض إضعاف جوانب المعتقدات الإسلامية الصحيحة!...

كانت فَرحة أم زياد بوجودي إلى جوارها كأني أحد أبنائها لا توصف. شعرت بحب عاصف نحوها. يكفي شعوري بجميلها واستقبالي في منزلها وهي لا تعرف عني شيئاً!. ملامحها مألوفة جداً، تشعر أنك تعرفها منذ زمن كملامح أغلب النساء العدنيات في مثل سنها. مثقفة، واسعة الإطلاع، تناقش في كل شيئ، تعشق القراءة وتجيد اللغة الإنجليزية من أيام الاحتلال البريطاني، لا زالت ترتدي الشيذر[18] في الوقت الذي استغنت عنه معظم النساء في عدن بعد قيام الوحدة في **22** مايو **1990**. فضلن ارتداء الجلابيب ومقارم غطاء الرأس السوداء الطويلة غير الملائمة لجو عدن الحار والخانق معظم أيام السنة!. بسبب الخوف من الاتهام بالإنتماء للحزب الاشتراكي الحاكم قبل قيام الوحدة في عدن، أو الإشارة إلى اعتناق الفكر الاشتراكي الماركسي!. وفيما بعد، أي بعد حرب صيف **94** الخوف من الاتهام بإتباع الانفصاليين!. كل هذا أمر يجب الهروب منه ولو بالملابس السوداء للنساء، أو الجلابيب البيضاء وإطلاق

---

[18] العباءة العدنية.

اللحى للرجال، الذين يعرفون الآن بإسم "مطوعين" سواء في عدن أو صنعاء!...

قليلون هم الذين صمدوا متمسكين بمبادئهم وولائهم للقضايا التي ضحوا من أجلها في تلك الفترة. ابن الخالة أم زياد الكبير"عبد الفتاح" أو "فتاح" كما تحب أن تناديه، تتكلم عنه بحب وشوق جارف. تفيض من عينيها الدموع وهي تحدثني عنه. اعتقدت أن مكروهاً أصابه لشدة الحزن الذي غمر نبرات صوتها! لكنها أخبرتني أنه شوقها إليه، فهو الوحيد من أبنائها الثلاثة وابنتيها، الذي يعيش بعيداً عنها، في صنعاء. رغم أنه قدم استقالته من عمله بسبب شعوره بأنه منصب لا يمكنه من خلاله ممارسة صلاحياته في قبول ورفض ومعالجة ما يعرض عليه! منصب عليه التوقيع فيه فقط على كل ما يطلب منه، منصب توازنات، لسياسة شعر أنها تسحب من تحت قدميه إحترامه لذاته ومبادئه! خاصة وأنه كان قيادي في اللجنة المركزية في الحكم السابق، وله كلمته المسموعة وأوامره التي تنفذ قبل قيام الوحدة!... قدم استقالته وفضل البقاء والعيش في صنعاء، مستمتعاً بزراعة حديقة منزله والقيام بأنشطة كثيرة كانت مؤجلة بحكم عمله، كالقراءة والكتابة والتأمل، ليس فقط فيما مضى ولكن التأمل الأقرب للفرجة على ما يجري من حوله!...

انقضى الأسبوع الأول في ضيافة أم زياد. عرفت خلاله الكثير عن حياة العدنيين وطقوس يومهم، وارتباطها الوثيق بالمناخ!... مراوح التهوية المتدلية من

السقوف، الإغتسال ما يزيد عن خمس أو ست مرات يومياً للتخلص من العرق الذي يسببه الحر الشديد. أما عدم وجود سخانات لتدفئة المياه في أغلب المنازل، أمر جعلني اشعر بالحرج من أم زياد وأنا أقوم بتسخين الماء بالغاز ولا أكتفي بحرارة المياه بفعل الشمس رغم أننا تجاوزنا منتصف يونيو المعروف بحرارته الشديدة. طقوس البخور العدني المميز جداً و المنبعث من أركان المنازل ومن أجساد النساء وملابسهن أذهلني بالفعل. يشكل سلسلة غير منتهية في علاقة جذرية بأسرار صنعه! وحاجيات تحضيره! وتميز أماكن ببيعه وأشخاص بطبخه، أي طريقة تحضيره كما يقولون بلغتهم. أما طقوس شاي العصر مع الحليب والهيل وجوز الطِيب، فقد عرفت سر ارتباط هشام به وإتقانه لتحضيره، إنه شبه اتفاق عام على التمتع بمذاقه فترة العصر أو بعد المغرب، خاصة في أماكن التنزه أمام البحر التي يحرص عليها معظم أهل عدن!...

بدأت اشعر بالهدوء والسكينة واستيعاب أين أنا وماذا حدث لي!. خَطَوت أولى خطواتي بعد إزالة الجبس من رجلي، في المنزل لأتأكد من التئام الكسور الثلاثة التي سببها الحادث. لم يكن هناك أي ألم أو مضاعفات! باستثناء عرج خفيف أثناء المشي، طمأنتني الخالة "أم زياد" أنه طبيعي نتيجة عدم السير عليها وسيزول تدريجياً!...

لم يستمر شعوري بالهدوء والسكينة طويلا، فبعد أن اشتد وضع الحرب، وتقدم الجيش من صنعاء باتجاه

عدن، عدت للقلق والتوتر أكثر من قبل، سماع تبادل إطلاق النار بين الحين والآخر، انفجارات لصواريخ لا أعرف مصدرها أو أين حطت، أدخلني في حالة خوف لا سبيل إلى وصفها!...

طيلة اليوم أطل براسي من شرفة المنزل. هناك الكثير لرؤيته منها، في البعيد وفي أكثر من مكان: دخان كثيف لا يمكن تحديد ما إذا كان لحريق أم لانفجار صاروخ أم تدمير معسكر!... وفي القريب، في الشارع أمام عيني، هلع وذعر بادٍ على وجوه المارة، تترجمه خطواتهم المتلاحقة، ونظراتهم الزائغة، محتارون تائهون ضائعون مثلي تماماً!...

شعور مدمر وطاغ بعدم الآمان، وبأن صاروخاً وقنابل ومتفجرات ستحط على العمارة بأكملها، ستدمرها، وسأموت مثل سامي! بعيداً عن أهلي ومدينتي وبيتي!... تعاملت مع كل ما يجري بنوع من الجُبن والخوف والذعر، بطريقة استغربتها على نفسي. أنزوي في ممر البيت كلما سمعت دوي الانفجارات، أطبق بكلتا يدي على أذني، أقرفص، التصق بالأرض، أتوحد معها، أتلفظ بكلمات ليس لها معنى! العن كل الذين كانوا سبباً في الحروب وإشعال فتنتها من ابد الآبدين حتى هذه اللحظة.

تحتضنني أم زياد، تحاول تهدئتي بين ذراعيها تربت على كتفي، كأنها كل أهلي الذين افتقدهم! وجل ما أخشاه الموت قبل رؤيتهم أو حتى وداعهم!...

بعد سماع أخبار انفجار الصاروخ الشهير بقوته وبعدد ضحاياه في منطقة قاع العلفي بصنعاء، جن جنوني، لقرب هذه المنطقة من منزل أهلي، زاد في إضرام نار فتيل القلق والهلع عدم ردهم على التلفون منذ منتصف مايو، منذ أيام محاولاتي اليائسة في المستشفى لطمأنتهم قبل وفاة سامي!. تلا ذلك انفجار مماثل وإن كان أخف وطأة في عدد الضحايا في منطقة الشيخ عثمان. يا الهي تحديداً الشارع التالي لعمارة الخالة أم زياد. توالت المصائب بعد ذلك ولمدة أسبوعين في انقطاع الماء والكهرباء في أكثر أشهر السنة حرارة، أشهر "الزرة والكاوي" كما يطلقون عليه أصحاب عدن!.

صمد أغلب الناس أمام التدمير النفسي والجسدي الذي يواجهونه وبدأوا في تذكر أماكن الآبار القديمة لإعادة حفرها، وأبدع كل في طريقته لإيجاد الماء، لإنقاذ، أطفالهم، نسائهم، مرضاهم، شيوخهم، من الموت عطشاً!.

لم تتوقف دموعي وأنا أرقب كل ذلك من الشرفة. لا يستحق أبداً أهل عدن ما جرى لهم في تلك الفترة الصعبة، يكفيهم معاناة سنوات الاحتلال البريطاني الذي جثم على صدورهم **129** عاماً! يكفيهم الفتن التي اشتعلت أبان الجلاء البريطاني في **30** نوفمبر**1967**، يكفيهم أحداث **13** يناير **1986** والأعداد المهولة التي كانت ضحية دون ذنب جنته أو جرم اقترفته، غير وثوقها بأناس ضربوا بمصالح الشعب عرض الحائط في سبيل مصالحهم وخلافاتهم الشخصية!. لم أصدق عيني وأنا

أرى الصور في أحد الكتب التي عرضتها علي أم زياد!. لم يخطر على بالي بأن حجم المأساة كان فظيعاً إلى هذه الدرجة! وبشعاً إلى هذه الدرجة! ويصعب إزالته من ذاكرة الناس والتاريخ مهما حدث!...

تتذكر كل هذا أم زياد، تحكيه لي، بمرارة، وحتى وصلت إلى مرحلة سكتت فيها واختنق صوتها وأجهشت بالبكاء، وأمام دهشتي وسكوتي واصلت: "زوجي كان ضحية هذه الظروف القاسية والفتن المشتعلة من أيام الجلاء حتى الآن، نجح البريطانيون في زرع بذرة الفتنة بين الجبهات التي كانت تحاربه وتطالب بحرية عدن قبل الجلاء، انتقاماً منها للشجاعة والصمود في الدفاع عن بلادهم: "الجبهة القومية"، "جبهة التحرير"، " التنظيم الشعبي"...

هذه المرة احتضنتها أنا، الخالة أم زياد، كم كانت عظيمة وهي تربي أولادها الخمسة بعد استشهاد زوجها، حتى وصلوا إلى الاعتماد الكلي على أنفسهم. هاهي وعن قناعة تامة تسكن منزلها بمفردها، المنزل الذي عاشت فيه أروع ذكرياتها مع زوجها، وأنجبت فيه أبناءها، رافضة أن تكون عبئاً على أحد منهم!، يتناوبون على زيارتها، يتماهون في خدمتها، ولا يتباطأون عن السؤال الدائم واليومي عنها وعن متطلباتها... كم هي عظيمة هذه المرأة!...

انتهى كل ذلك الألم والخوف والقلق الذي بدأ في الخامس من مايو، بعد نهاية هذه الحرب التي أضافت لليمن دماراً جديداً كانت في غنى عنه.

لـــــــو...

قررت البقاء في منزل الخالة أم زياد لعدة أيام قبل العودة لصنعاء، انشد الراحة والهدوء ولو لفترة بسيطة. منذ أكثر من عامين لم انم كما يجب، لم أسترخ في لحظات تأمل كما تعودت! وربما لم أعد أدرك فيما إذا كنت أنا هي أنا أم شخص أخر!...

أريد التفكير بعيداً عن أي مؤثرات في حياتي ومستقبلي بعد ما حدث لسامي! بعد وفاته المفاجئة التي سيصعق خبرها الجميع، أردت أيضاً أن أتمتع بالبقاء في عدن، رغم يقيني بأنني لن اشبع منها مهما طال بقائي فيها! إنها المدينة التي أوقعتني في حبها من أول نظرة، في تلك الرحلة الخالدة للطلبة المتفوقين!...

كان البحر هدفي الأول، رؤيته، الحديث معه، الانبهار بعظمة إنصاته، مراقبة مده وجزره، سماع هدير موجه، ترقب بخوف تقلباته، استشعار غضبه، الحذر من غدره!... لا أدري لماذا يذكرني غدر البحر بهشام! ربما لأنه يظل هادئاً يداعب موجه، يهدهدها قبل أن تعلن

رياح غضبه وزوبعة مزاجه هيجانها وقضاءها على كل ما تحمله على سطحها!

هذا تماماً ما فعله بي هشام! ومع ذلك لم يغادرني طيفه ولو لثوان. سامحته من كل قلبي! غفرت كل أخطاءه عن رضى، كم صرت أعشق التوحد في طقوس استحضاره، محادثته، مناجاته، الهمس الدافئ في أذنيه بوله بكل مشاعري تجاهه. استرجاع ذكرياتي معه، كم تمنيت لو تعود تلك الأيام، ولو جزء منها فقط، يوم منها فقط، ساعة منها فقط، دقائق وربما ثواني منها فقط، إنه المستحيل بعينه!...

يلفني الحزن في غياب جدرانه، يلازمني شعور قاتل بالوحدة منذ اختفى ولا أعرف عنه شيء! أي ظروف وأي أحداث تلك التي جعلته يفعل هذا بي! وهو يعلم شدته وقسوته عليّ!.

أتساءل الآن في وقت لم يعد فيه التساؤل مجدياً!، ماذا لو استخدمت مفكرة أرقام التلفونات والعناوين الزرقاء، في زيارتي الأولى لعدن، في رحلة الطلبة المتفوقين. ماذا لو أخرجتها من دفء جيبها في حقيبة يدي المفضلة التي لا تغادرها، حتى لو اضطرتني الأناقة لتبديل لونها من حين لآخر ليناسب ملابسي!. إلا أن المفكرة الصغيرة لا تفارقها أبداً. ماذا لو قلبت صفحاتها الصغيرة، وبحثت في أرقامها وعناوينها الغير مستخدمة من باب الفضول ليس إلا! ماذا لو داهمتني تلك الفكرة المجنونة في الاتصال بهشام!...

لقد كتب بخط يديه الجميل وباللون الأخضر رقم تلفون وعنوان منزله في عدن، تحديداً كتبه أسفل الصفحة الخامسة للمفكرة، ليعبر عن شوقه الجارف الذي كان يداهمه لعدن، وربما كتبه لأنه لم يتخيل أن الوحدة ستتحقق وان بإمكاني زيارة عدن وبمنتهى السهولة!.

الأكيد أنه كان على يقين من أنني لم ولن استخدم العنوان أو حتى يخطر على بالي الاتصال تلفونياً دون إشعاره، والاستئذان منه أولاً!... وهذا ما حدث في الزيارة الأولى وما سيحدث الآن! ها هي المفكرة في جيب الحقيبة، أخرجها في اليوم مئات المرات، أتأمل العنوان، اسأل عنه، عن قربه أو بعده من منزل الخالة أم زياد، أتخيله، ربما لا تفصلني عنه سوى بعض حارات. لكني لن افعلها، لن افعلها!.

أقلب صفحاتها مجدداً مفكرتي الزرقاء، كل ما فيها من أرقام ومن عناوين، لم يعد يستخدم، أصبح غير مجدي التفكير حتى في استخدامه! لكن ذكريات كل رقم وكل حرف خُط فيها تفوق الخيال! تأخذني إلى أنقى مراحل عمري، وأروع ذكرياتي!....

أولاها، عدة أرقام متتابعة، التالي يمحو الذي قبله لفندق "البرج الفضي": الفندق الذي لم يغيره أبي خلال فترات زيارته وزيارتي أنا وسلى معه للإقامة فيه، في قلب مدينة دمشق.

كم أحب المفكرات الزرقاء لزيارات دمشق المتعددة، تفاصيل يومياتها، نوادر أحداثها، أجمل لحظاتها وأمتع تفاصيلها الصغيرة مع أبي وسلى، كيف لا وأنا صرت

أعشقها دمشق، آه من دمشق. المدينة الجميلة التي اكتشفت فيها أنوثتي!. المدينة التي جذرت علاقتي غير الحميمة بالمرآة. أن تكتشف شيئاً كهذا في مدينة فهذا يعني أن لا تنساها أبداً. أن تخلد اسمها على لسانك. أن تحفر أماكنها على جداً ر مخيلتك، أن تعلو شهقتك فرحاً كلما سنحت لك ظروف زيارتها، أن ترتجف أوصالك كلما داعبت مشاعرك ذكرياتها، أن يصلك رائحة ياسمينها عبقاً كلما تلفظ باسمها أحد أمامك، أن تستنشق مدينة بكامل تفاصيلها لمجرد ذكرها، فهي بالتأكيد تعني لك الكثير!...

صباحات دمشق آسرة للفؤاد، مشرقة الطلعة، بهية الملامح، متجلية المشاعر لا يجرؤ على منافستها صباح. دغدغة رائحة القهوة لذكرياتك، تحريضها على أن تطفح من أرجائك وأنت ترقب الشارع النابض بالحياة ذائباً في وجوه ساكنيه، من شرفة دافئة لفندق أخلصت لحميمية مالكيه وموظفيه وحتى ساكنيه، شيء لا يمكن نسيانه أبداً!...

مساءات دمشق عبقة برائحة الياسمين، ينعشك نقاؤها، يوسع شراييك وأوردتك، يبهجك، يضفي على كل ما حولك بياض تتمنى أن لا يفارقك ألقه وروعته... تسير في هزيع ليلها، تنصهر في هدوئها، تقبل أرصفتها، تملس على أزقتها، تداعب حجارتها، تغسل أدرانها، تنقي شوائبها كل هذا بحب خالص وحنو صادق، يغمرانك سعادة هائلة...

آه لو يستطيع المرء أن يفعل بالبشر ما يفعله بالمدن!...

عبارات باللهجة الشامية، تبتسم لسماعها وإن لم ترقك! تلفح وجهك حرارتها، ويصلك صدقها، تعتقها في أعماقك، يزداد تألقها وقيمتها بمرور الزمن ليصبح لمذاقها نكهة أخرى تسكرك وتلفك في نشوة تذكرها:

"شو!!! ما في سكر في البلد" أنظر إلى ساقيَّ، اشعر بالخجل! فعلاً: لماذا لم أنزع كل هذا الشَّعر عنهما حتى الآن! ألا تفعل ذلك كل البنات في مثل سني! ولماذا لم تصبح مواضيع الزينة وتهذيب الحواجب، والتفكير بصبغات الشعر، والاهتمام بإخبار الموضة، ذات أهمية كبيرة في حياتي!...

"يا الله، ما أحلى سمارك" "ولي، على هالخصر" أطيل الوقوف بعد سماع عبارات كهذه، أمام المرآة، أتلمس وجهي، هل حقاً لونه جميل؟ سمار يجنن! لون حنطي ملفت إلى هذه الدرجة! لا أدري، بالتأكيد المتغزلون الذين كانوا يدحرجون عباراتهم الساحرة أمامي أدري!... وأمامها أيضاً المرآة، اشد ثيابي على جسدي فعلاً قدّ مياس كما يقول صباح فخري في أغنيته الشهيرة "قدك المياس يا عمري، أيقظ الإحساس في قلبي..." مقاسات مدهشة لجسد جذاب، بالتأكيد لم يكن هذا كلامي! أخبرتني بذلك بائعة في محل ملابس وأنا أقيس أحد الفساتين، في ذات رحلة. وكدت أطير من الفرح وهي تطلب مني أن أعمل لديها عارضة أزياء!. أرضت بطلبها هذا شيئاً ما في داخلي لا أعرف كنهه،

وحِرت في تفسيره!. كررت ذلك أيضاً وبعد عام خياطة كانت تعد لي فستاناً لحضور حفل زفاف أولى صديقاتي السبع العزيزات، هناء!...

لم تكن تعنيني كل هذه العبارات وكل هذا الغزل، رغم شدها لانتباهي للحظات، إلا عندما قالها لي هشام، وهو يمر بيديه على خارطة جسدي أثناء قبلته الخالدة لي في آخر لقاء لنا، قبل أن تشتبك أحداها في يدي والأخرى على خاصرتي هامساً بنشوة غامرة "فرح، أنا مسحور!...". هشام الذي تآمر هو ذاته مع القدر على حرماني منه! ومن السعادة التي كنت انشدها بقربه، على وأد فرحة قلبي قبل أن تصرخ معلنة استقبالها للحياة!...

الرقم والعنوان التالي والغير مستخدم أيضاً في المفكرة الصغيرة الزرقاء، كان لزميلي جورج، الطالب المصري الذي رافق والده للعيش في صنعاء، هو للدراسة ووالده للعمل كمدرس في الجامعة!... جورج قطع فترة دراسته معنا في جامعة صنعاء وعاد إلى بلده. سألته لماذا يا جورج؟ أجابني بكلمة واحدة شفافة وصادقة ومعبرة عن كل ما يعانيه، بلهجته المصرية الجميلة والقريبة جداً إلى القلب "إتخنقت" لم اسأله ما الذي خنقك جورج؟ لأني كنت أعرف الإجابة تماماً!...

جورج ربما كان يبحث عن مدينة تبهره أضواؤها، ألوانها، ناسها، حجارتها. لم تكن المسافة التي يقطعها كل صباح من السكن الجامعي إلى الكلية كافية لتمتع عينيه بأشجارها عوضاً عن الحدائق شبه المعدومة، والتي لم تزد واحدة في صنعاء منذ أواخر السبعينات! لم يستسغ

جورج أيضاً تناول القات لينسجم مع زملائه، رغم حبه واحترامه لهم. ولم يكن نبيل صديقه الوحيد قادراً على البقاء معه طوال اليوم، حتى لو كان ارتياح كلاً منهما للحديث والبقاء معاً بلا حدود!...

آخر رقم وعنوان غير مستخدم هو لسلى. لم أتخيل يوماً أو يخطر على بالي أنني لم أستخدمه بعد أقل من شهرين على كتابته. لم أشأ أن أقلقها عليّ، أن اكدر حياتها الهادئة مع زوجها وولديها بعد سفرهم لباريس، لأربعة أعوام يستكمل فيها زوجها دراسته العليا في الطب!. كانت تستشف في كل محادثة تلفونية بيننا الحزن الكامن في نبرات صوتي. تقرأ ما وراء سطور رسائلي. تجلدني بأسئلتها في كل مرة!... أتلعثم، لم أتعود الكذب عليها، تقتنع رغماً عنها لأن لا خيار لها "أنني بخير"!. خفت مكالماتنا، تباعدت رسائلنا، حتى أصبحت نادرة ومن قبلها هي فقط!...

الم أقل بأن كل ما في مفكرتي أصبح غير مستخدم؟ لكن هذا لا يمنع أن تظل محتفظة بدفء الجيب الداخلي لحقيبة يدي، وأن أظل أنا محتفظة بدفء أرقامها وحروفها، التي تمدني رغم عدم استخدامها بجميل ذكريات كتابتها!...

عدن شمالا!

استيقظت في اليوم الذي قررت فيه مغادرة عدن مثقلة بالهموم، أتفجر قلقاً، لا أدري ممَّ ولمَ!. شعرت بي الخالة أم زياد، ضمتني إلى صدرها وهي تودعني، غبت عن العالم لدقائق في دفء وحنان حضنها، وهى تقرأ ما تيسر لها من القرآن وتمسح بيدها على راسي. تسرب إلى أعماقي بعض الهدوء. أشفقت عليها وهي تحاول جاهدة إخفاء دموعها وألمها من فراقي! كم هي عظيمة هذه المرأة، تكتنز طيبة وكرم وروعة أهل عدن جميعاً في قلبها الذي ينبض بالحب للحياة وللناس!...

(أمانة عليك يا "بتي"، زوريني كلما جئت إلى عدن، أنت من اليوم بنتي الثالثة، في أمان الله...) سأفعل ذلك بالتأكيد حتى لو لم تقل أم زياد جملتها وأنا ألج السيارة التي ستنطلق بي إلى صنعاء!...

كم بدا لي الطريق غريباً، موحشاً، كأني أسير فيه لأول مرة. كم تبدو لنا الأماكن موحشة مخيفة إذا خلت ممن نحب! إذا رأيناها بدون من نحب! إذا لم تظللنا في سيرنا ذكريات من نحب! والأفظع من هذا كله إذا عشنا

فيها بدون حب، وبدون من نحب! كنت شاردة الذهن، مشتتة الأفكار، لا أعرف ما الذي ينتظرني في صنعاء من أخبار! وهل هي خير أم شر؟ لصالح أهلي وسلامتهم أم لا؟ وإلى جانب هذا كله كيف سأخبرهم بوفاة سامي! وكيف سيتلقى أهله الخبر، وهم على يقين بعودتنا من شهر عسل جديد، لبدء حياة جديدة!.

حاولت الاسترخاء بعد أن أرهقني التفكير وبدأ الملل من الطريق يصيبني مسبباً لي صداعاً شديداً ورغبة في إخراج ما بجوفي، أشعرها لأول مرة. حاولت الهروب من هذا كله بالقراءة أخرجت الكتاب من حقيبة يدي، كتاب صغير الحجم بداخلها، تعودت وضعه فيها، ينقذني في مواقف تتطلب إنتظاراً، لأقضي على الملل الذي يصيبني في حالات كتلك! كان الكتاب قد صدر حديثاً بعنوان "جيوب مثقلة بالحجارة" عن قصة حياة الكاتبة البريطانية "فرجينيا وولف" وترجمة آخر رواية لها بعد موتها. أشد ما راعني في الجزء الذي قرأته عن سيرتها هو تصميمها على الانتحار في آخر حياتها. فشلت في المرة الأولى لكنها نجحت في الثانية! حين ملأت جيوبها بالحجارة واتجهت نحو النهر، ماتت غرقاً! أي قوة جعلتها صامدة في مواجهة الموت! وأي إرادة مبهرة مكنتها من تحقيق هدفها مباشرة! واجهت الموت في الوقت الذي لم ترد أن يواجهه زوجها بعد أن اتفقا على الانتحار معاً!... تركته يعاني مرارة الوحدة بعد موتها! أشفقت عليه من الموت ولم تشفق على نفسها!.

كم أمقت هذا التفكير تجاه من نحب! أن نعطي لأنفسنا الحق في التفكير بعقل الآخر، واستخدام مشاعره وفق ما يناسبنا، لأن ذلك في مصلحته، حتى لا نسبب له الألم! مفارقات غريبة تجعل من الألم لمن نحب دائرة، يلف حولها دون توقف! تخنقه في اليوم مئات وربما آلاف المرات!

أتمنى أن لا يكون هذا هو العذر الذي سأسمعه من هشام فيما لو حدثت معجزة وتمكنت من رؤيته مجدداً. لأن ما قاسيته من هذا الشعور مع أعز صديقاتي لا يمكنني تحمله مرة أخرى!. صديقتي "فيروز" قررت بإرادتها الانقطاع عن الحديث معي إلا فيما ندر. ووضع حد لعلاقة الصداقة القوية التي تربطنا منذ الصغر، لم نكن نخفي فيها أسرارنا ومشاكلنا وهمومنا عن بعض، واكتفت بالسؤال عن الحال! وتبادل الزيارات الرسمية والمناسبات التي لم تكن تهتم فيما إذا كانت سعيدة أم حزينة! المهم أن حبل التواصل لم يقطع!.

لم ترحم توسلاتي لها بإيجاد تفسير أو تبرير لما فعلته، وعندما قررت تركها لما تريد، جاءتني، تسبقها دموعها، دموع الندم كما قالت، مبررة ما فعلته فيّ وفي علاقتنا بأنه حب لي! ورغبة صادقة منها في عدم إزعاجي بمشاكلها التي لم تعد قادرة على مواجهتها إلا بالهروب من العالم، والناس والبقاء وحيدة في منزلها، خاصة وأنني كنت من الناصحين لها بعدم الاستعجال في الزواج من إنسان تعرف هي عيوبه قبل غيرها، عيوبه التي سحبت من تحت قدميها بساط استقلاليتها، وحبها

لمواصلة التعليم والعمل، وجعلها قطعة ديكور جميلة في المنزل أمام الجميع.

لم يخدعها أو يخفي عنها شيئاً كما فعل سامي معي، بل كان واضحاً معها في شروطه التي قبلتها عن طيب خاطر وخنقتها فيما بعد، لتصبح تلك الإنسانة الانعزالية عن الناس، والانهزامية في تقبل ظروفها دون أدنى محاولة ولو بسيطة منها للتغيير!...

لم أستمر في القراءة رغم كل التشويق الذي في الرواية، لم اعد قادرة على التركيز في أي شيء، لا أعرف ما هو الشيء الذي سيريحني وما سبب حالتي تلك!.

هربت من كل ذلك إلى هشام، إلى استحضار طيف هشام، إلى التمتع بذكرياتي مع هشام. وصلني إحساسه وشعوره وهو يعبر الطريق إلى صنعاء عندما قرر مغادرة عدن بعد أحداث يناير الدامية في **1986**، لم اسأله عن السبب لكنى استمعت إليه بكل جوارحي. كتبها لي أيضاً في أحدى رسائله التي وصلتني قبل أن يختفي! لم أعرف لِمَ كتبها وقد سردها لي سابقاً بالتفصيل؟ هل كان يريد أن تصلني رسالة أخرى عن طريقها ولم أفهمها؟ لا أعرف ولا يمكنني تخمين أي شيء. لقد فضل ولأسباب تعنيه واجهلها تماماً حتى الآن الاختفاء! أشعر أنني ولكثرة ما قرأت هذه الرسالة بالذات لأحاول معرفة غرض إرسالها قد حفظتها عن ظهر قلب! في الحقيقة أنني صرت أحفظ رسائل هشام جميعاً، اعشق قراءتها

ولم أملّ يوماً من هذا الفعل اللذيذ الذي يجعلني قريبة منه، حد التوحد!...

((حبيبتي فرح، رغم حبي الجارف لعدن، إلا أنني قررت مغادرتها أو على الأصح الهرب منها! لأني باختصار فقدت القدرة على أن أحلم فيها، تتحول المدن في تلك الحالة إلى مدينة أشباح تقظ مضجعك وتسلب أمانك وراحتك! لم يكن قراري هو التجربة الأولى لي في مواجهة متاعب الحياة، لكنها كانت التجربة الأولى في الابتعاد عن حضن أمي الدافئ، وعن أشقائي وأهلي وأصدقائي، بإرادتي بعد عودتي من الدراسة من ألمانيا!...

لم أطق بقاءً في عدن بعد فظاعة ما حدث في اليوم الدامي من يناير **1986**، الذي لم ولن يزول من ذاكرة التاريخ فيما لو تجاوزه البشر!. لا يمكنني أن أقرب لك بشاعة ما جرى مهما كنت خبيراً في الوصف. ولا يمكن لعقلك تخيل بشاعة ما حدث!!!.

هل أحدثك عن انتفاخ الجثث التي كانت ملقاة في الشوارع، دون ذنب اقترفته في الدنيا، لتحرم أيضاً من مواراتها للثرى وهي جثث هامدة، وقد تحولت إلى وجبات دسمة لكلاب الشوارع!. هل أحدثك عن الأطفال الذين سكنوا المدارس والمساجد عوضاً عن منازلهم بحثاً عن الأمان! هل أحدثك عن الآباء وهم في حيرة من أمرهم في البقاء مع أهلهم لحمايتهم أم الخروج بحثاً عما يسدون به رمقهم ويروون به ظمأهم!...

لم تكن تلك السحب الكثيفة من الدخان جراء احتراق مصافي وحاويات النفط، أو رؤية منشآت حكومية، تُدمر وتُنهب تهمني أو تُحرك فيّ ساكناً، بقدر ما كان يهز كياني، سلامة الأطفال والنساء والشيوخ وانتشالهم فيما زجوا فيه من قذارة السياسة وغدرها وتقديمهم دائماً قرابين لها، وفي الصفوف الأولي في كل الجبهات، إن لم يفلحوا في الاستجداء بهم واللعب على مصالحهم والتلاعب بأمنهم واستقرارهم!.

شعرت أنني اختنق في عدن يوماً بعد يوم، أموت ببطء، وان لم أخرج منها فأنا هالك لا محالة!. استطاع أحد أصدقائي تدبير أمر هروبي في رحلة لها من المخاطر ما يجعلك تفقد حياتك في غمضة عين!. ورغم خطورتها على حياتي إلا أنها سبب سعادتي، فبدونها لم أكن لأتعرف عليك ولم أكن الآن ذائباً في حبك، هائماً في ملكوت روحك! مسحوراً بنقاء جوهرك، وطيبة أصلك، يسري في دمى رضاب قبلتك الخالدة التي لم يفارقني استرجاع شهد عذوبتها كلما خلوت لنفسي هارباً من منغصات الحياة ومكدرات العيش!...

أتذكر تماماً شكل السيارة "اللاندروفر" القديمة وهي تقلنا متجهة بنا نحو الشرق بمحاذاة ساحل أبين، قبل أن نصلها عبر ذلك الطريق القديم والمتآكل الذي لم يتم إعادة سفلتته من أيام الاحتلال البريطاني، بعد أن عبرنا على نقاط تفتيش تم مضاعفتها بعد الأحداث.

استقبلنا حال وصولنا منطقة "مودية"، دليلنا المكلف بإيصالنا للشمال، إلى صنعاء. رجل في منتصف العمر،

كان له رجل خشبية كتلك التي كانت لبطل رائعة "تشارلز ديكنز" رواية "جزيرة الكنز".

اختلط الأمر عليّ، وسألت نفسي فيما إذا ما كان الذي أمر به الآن ومرت به عدن هو حلم وكابوس مزعج لا غير! لولا وجود ثلاثة شباب إلى جواري ينشدون الشمال أيضاً. لم أسأل عن أسباب اختيارهم الهرب من عدن طيلة الرحلة رغم الألفة التي جمعتني باثنين منهم، أما الثالث فقد انهار ونحن لم نتجاوز حدود اليمن الجنوبي بعد، وعاد أدراجه بعد أن تم تسليمه لأحد المعسكرات الحدودية لإعادته لعدن!.

أما ثلاثتنا مع الدليل فقد طوينا الطريق الترابي الذي تحيط به الكثبان الرملية بصعوبة حتى وصلنا مشارف قرية نائية تم تسليمنا إلى دليل آخر عوضاً عن ذي الرجل الخشبية. مكثنا في تلك القرية حتى حلول الظلام.

تصوري يا عزيزتي بأن آخر قرية غادرناها كانت قريبة جداً من الإسفلت ومع ذلك لم يكن بها كهرباء، بينما تلك القرية الشمالية النائية في آخر أطراف الحدود مع الجنوب كان بها موتور كهربائي لإضاءة منازلها، هذه معلومة ما كنت لأصدقها لو لم أراها بعيني! ولك تفسيرها بما شئت!.

انتظرنا حلول الظلام، جاءنا رجلين نحيلين يرتديان المعوز[19] ويضعان شريطان من الرصاص على صدر كل واحد منهما. يحملان رشاش من "الكلاشنكوف"،

---

[19] المئزر باللهجة العدنية.

تبعنا خطواتهما الجبلية المذهلة، الرشيقة والسريعة وسط الظلام، ولولا ضوء القمر المكتمل في تلك الليلة ما استطعنا تجاوز الحقول المزروعة لنصل بعد ساعات من المشي المضني إلى أراضي صخرية تحيط بها الجبال من كل مكان. صعدناها بصعوبة شديدة ونحن نحاول بحذر تجنب الأضواء الكاشفة للمعسكرات الجنوبية المتاخمة لهذه الجبال. نشق بصعوبة طريقنا نحو الأعلى في سباق مع ضوء النهار، يجب الوصول إلى قمة الجبل قبل تثاؤب أول خيوطه الفضية!...

لم أكن اسمع أثناء صعودي الجبل خلف الرجلين أي شيء، أسير بحركة آلية، ويسير في مخيلتي شريط حياتي، فيلماً حياً، مشوقاً، مثيراً مترابطاً لأهلي وأصدقائي، حارتي وبيتي، مدرستي وكليتي، طلبتي وزملائي في القسم! فيلما لم ينته بعد، فيلما توقف حتى اللحظة بالنسبة لي، عند ضحكة أمي التي جاهدت أن تستبدلها بدموع وداعي. يحلق فوق رأسي ويحميني الآن، دعاؤها الذي لم يتوقف انهماره من شفتيها حتى تواريت من أمامها! وهي لا تعلم فيما إذا كانت ستراني مجدداً أم لا!.

وصلنا أخيراً! انتصرنا! قهرت إرادتنا الزمن الذي لم يكن معنا أبداً! ورغم ذلك وصلنا القمة، قبل الوقت المحدد بفترة سمحت لنا بأخذ قسط من الراحة، بعد شعورنا بالأمان حتى لو كان جزئياً!...

كم شدني ذلك المنظر الذي أمامي، سحرني، رويداً رويداً حتى صرت فيما بعد من عشاق المناطق الجبلية!.

رؤية السحاب من أعلى، شعورك بأنك تلمسها، تطير بخيالك متنقلاً بينها، يزيد في متعتك إحساسك بأنك تجاوزت حلمك لتلك الأمنية بمراحل! كم بدت لي تلك الطبيعة خلابة وآسرة للنظر والفؤاد من أول وهلة. فاقت مناظر كثيرة تميزت بها الدول التي زرتها في أوربا!...

كم كنت أتلهف لتلك الحياة التي بانتظاري، لتلك المغامرة التي قررت خوضها مهما كلف الأمر، لكل ما كان يعتريني في تلك اللحظات وكأنني خارج الزمان والمكان!...))

كم بدت لي الطريق التي سلكها هشام، والتي أسلكها أنا الآن مختلفة الأماكن، لكنها متشابهة حد التطابق في ذلك المصير المجهول الذي كان ينتظر هشام وأجده واقفاً في انتظاري ولا يفصلني عنه سوى ساعات!...

مصير: يبدأ بكلمة "أرملة" أجدها أفضل من كلمة "مطلقة" في مجتمع يحمل المطلقة وزر علاقة نبيلة ومقدسة انتهت بالفشل! (يجب أن تتحمل المرأة الرجل!...) (بيتها وأولادها أهم من سعادتها!...) وإذا ما صبرت وتحملت كل العذاب ثم طلقها، (اهتمت بالناس ولم تهتم بزوجها!...) (لا بد وأنها كانت مقصرة في حقه!...).

عبارات تدور حول نفس النقطة في مجتمع لا يرحم و النتيجة: هي مذنبة في كل الحالات، استحملت حياة العذاب أم لم تستحملها!، تمردت على الظلم والقهر، أم فضلت الهدوء والسكينة والعيش منكسرة!، ليس لتصرفاتها أو معاملاتها مع الناس سوى تفسير واحد

(أنها تبحث عن زوج جديد!...). تفسير يحتاج أن تكون المرأة قوية ولا تهتم للّغط الدائر حولها، ما دامت في الطريق الصحيح!.

لم أكن تلك القوية، لذلك استحملت ما فعله بي سامي! لخوفي من تلك الكلمة! تفكير غريب، استغربه على نفسي! ناقشته مراراً بيني وبين نفسي لأتغلب عليه دون فائدة. حاولت استجداء حقوقي أولاً من أبي وشقيقي لاستكمال دراستي العليا، ثم خيبة أملي في الحصول ولو على جزء بسيط من تحقيق طموحي مع سامي!...

هاأنا الآن حرة، أرملة تعني حرة، الموت لم يرحم زوجها فقط من عذاب الدنيا لكنه أيضاً رحمها من عذاب المجتمع، ليس لها دخل في موته! قوة ورحمة إلهية جعلتني أنعم بالحرية واقف أمام الجميع في سبيل تحقيق طموحي من أجل مستقبلي الذي حلمت به. أرملة، نعم أرملة في الثامنة والعشرين!!

مفاجآت!

مفاجآت عديدة كانت بانتظار عودتي إلى صنعاء. أولها الطريقة التي تعامل بها أهل صنعاء وساكنوها مع

حرب **1994**!. فرار العائلات إلى خارجها سواء كان لديها أهل أو لم يكن! المهم هو عدم البقاء فيها وإتقاء شر أصوات الرصاص وصفارات الإنذار لهجوم الصواريخ.

أهلي وجميع معارفي فعلوا ذلك!. فضلوا سفر النساء والأطفال إلى القرى فيما لو اضطر الرجال للبقاء بسبب أشغالهم ومصالحهم، لذلك لم أتمكن من الاتصال بهم ومعرفة أخبارهم!...

أروع تلك المفاجآت، كانت رؤيتي لسلى، عادت من باريس لرؤية أبي وأمي وأشقائي، بعد مكوثها في حالة قلق فظيعة طيلة فترة الحرب أي ما يزيد عن الشهرين!. كم بدت لي عظيمة وأنا في فسيح حضنها الدافئ، دون عتاب لي أو تأنيب عن إنقطاع مراسلتها، والهروب من مكالمتها التلفونية! وحدها تعلم كم أحبها وكم أذوب في ملكوت حنانها اللا متناهي! وحدها تعلم أنه مهما باعدتنا المسافات فما في قلبينا خارج عنها! ما في قلبينا لا يحتاج إلى براهين الكلام وتبادل الحديث بمر الشكوى، من الحياة التي لا تتواني عن إذاقتنا ويلاتها وتملي علينا قراراتها!... كم كانت متشوقة لمعرفة أخباري مع سامي، بعد أن أدهشها الجميع بالحديث عنه وعن تغييراته الجذرية في الحياة، ليس معي فقط لكن مع الجميع! وكم حزنت لسماعها خبر وفاته وبتلك الصورة المؤلمة!...

المفاجأة التي لا سبيل إلى وصفها أو على الأرجح لا سبيل إلى تفسيرها! هي المفارقة الغريبة بين الحزن الذي لف أهلي جميعاً، أبي، أمي، أشقائي، وأدخلهم في دوامته بشكل واضح طيلة فترة العزاء أحدى عشر يوماً

غمروني خلالها بالعطف والحنان والمواساة بكل ما أوتوا من حديث وتصرفات... وبين تلقي خبر وفاة سامي من قبل أهله، بدا لي الأمر وكأنهم كانوا إما على علم بوفاته أو توقع بذلك!... لم ينهاروا، أو يندهشوا حتى أن دمعة واحدة لم تنزل من مآقيهم، أمه، أبوه، أشقاؤه وشقيقاته!...

احترت لموقفهم ولم يكن بإمكاني سؤالهم أو حتى سؤال شقيقته الصغرى كاتمة أسراره وصديقته الوحيدة، التي كانت أكثرهم حزناً وتأثراً بالخبر!

مفاجأة المفاجآت في ذلك كله كانت ذلك الظرف الذي وصلني من أهله عن طريق شقيقته الصغرى أيضاً، آخر أيام العزاء، وعبارتها التي تؤكد أن محتوى الملف كان معد قبل سفرنا إلى عدن: (المفاجأة التي لم يتمكن من رؤية وقعها عليك!)...

مفتاح وورقتان، هما كل محتوى الظرف. مفتاح للمنزل الفخم أو بالأحرى السجن الذهبي الذي عشت فيه عامين، وتؤكد أحدى الورقتين أنه صار ملكي، لأنها عقد بيع للمنزل موثق بأسمي!. أما الأخرى فقد كانت رقم حساب بأسمى أيضاً في أحد البنوك!...

لم تشغلني يوماً أموال سامي أو السؤال عنها وعن معرفة كم تكون، بقدر ما كان يشغلني البحث في أعماقه، عن سبب ما يفعله بنفسه وبي! خاصة أنني لم أطلب منه يوماً أي مبلغ من المال، واكتفيت في الفترة الأولى بمرتب عملي من الجامعة، وتوفير جزء بسيط منه في الفترة اللاحقة. لم تثرني أيضاً الهدايا غالية الثمن التي

كان يشتريها لي، لأنها كانت تصلني على هيئة اعتذار مبطن منه ولو لم يقل ذلك، على كلمة جارحة في حقي، أو سخرية لاذعة من إبداء رأيي في موضوع يتحدث عنه، أو إحراجي أمام أحد أهلي أو أهله بتحقير شأني أمامهم، أو...، أو...، أو... كانت ما أكثرها إهانات سامي!...

كرهتها جميعاً، هداياه! لم أكن استخدم أياً منها إلا إذا هو طلب ذلك، لقضاء الليل معي، الليل الذي كان كابوساً مزعجاً، وسجنا أنهيت فترة العقوبة فيه، وأرغب في نزع أيامه السوداء من ذاكرتي ومن حياتي بأسرها إلى الأبد!.

كان بارعاً في اختيار العطور الباريسية الراقية، ملماً بتاريخها ومتابعاً لجديدها. بارعاً أيضاً في انتقاء فساتين السهرة التي تبرز مفاتن الجسد وتزيد في إثارته على الفراش، مبالغته في شراء قمصان النوم الحريرية، البيضاء، كم كان يعشق اللون الأبيض! وكم كان ساذجاً وهو يعتقد أن قسوته معي سيزيلها كلام الغزل الذي يخرج من بين شفتيه وأنا أرتديها، لحظات تمنيت فيها دائماً لو يتحول جسدي وشكلي إلى مسخ مقرف ومشوه ليبتعد عني ويريحني من العذاب!...

لن تهمني أمواله الآن، بعد أن مات. إذا كان اعتقاده بأن مفاجأته التي قرر أن تكون حال عودتي من عدن ستنسيني مرارة ما لاقيته على يديه! وفيما لو كانت ملايين الريالات، التي أجدها على رقم حساب البنك

أمامي ستعوضني ليلة واحدة كنت أتمنى فيها الموت عشرات المرات!.

رغم كل ذلك سامحته من كل قلبي، رغبة صادقة في إعطاء فرصة جديدة لكلينا! للبدء من جديد! يكفي شعوره بالندم! يكفي اعتذاره لي! يكفي تقديره لما فعلت وأن هذا لم يكن عن ضعف مني أو خوف منه. بل عن قناعة في استمرار الحياة بشكلها الطبيعي بيننا، وأن الحياة بحاجة إلى تقديم تنازلات و تضحيات. إن لم يقدرها الآخر فلا قيمة لها! وها هو أخيراً قد فعل! شعر بجميل صنيعي معه وصبري على إيذائه لي. ترن في أذني عبارته وهو يعتذر عن كل ذلك في منزل أبي: (هذا صبر بنات الناس! ذات المعدن النقي، الطيب!...)

لكن للأسف قالها في الوقت الضائع. في ذات اللحظة التي قرر فيها أن يكون شخصاً آخراً! لم يسعفه القدر ليكمل مشواره في الحياة!...

صباح استلامي للظرف، لم يرفض أبي أن اقضي فترة الوجل[20] في بيتي، بعد أن فاجأه كما فاجأ الجميع عقد التمليك وورقة حساب البنك!. أقنع شقيقي أيضاً بعدم التعرض لي والسماح لي بالذهاب! لأنها "فترة وتعدي" وسأعود مجدداً للبيت!..

لم أناقشهما فيما كنت أنويه، وجعلت الأمر للظروف وللأيام التي ستقول لهما كل شيء. ستقول لهم بأنني قد

---

[20] هي فترة الحداد الشرعية على الزوج في حالة وفاته وهي أربعة أشهر وعشرة أيام.

قررت العيش في بيتي حتى لو كنت وحيدة كما يقولون، وليس لي ولد يزيل عني هذه الوحدة، ويضع مبرراً أمام المجتمع وسبباً في بقائي في بيتي! ستقول لهم الأيام بأنني قررت استئناف حياتي مجدداً بعد قضاء عامين كانت لهم، وللمجتمع وللناس من حولي!. وأن من حقي العيش كما أريد! وبالطريقة التي أجدها مناسبة ما دامت لا تؤذي أو تجرح أو تسبب ألماً لأحد! ستقول لهم أشياء كثيرة ستفصح عن نفسها وستجاهر بوجودها في حينه. المفاجأة الكبرى في هذا كله هو بيتي!...

لم يكن البيت الذي دخلته للتو، هو البيت الذي عشت فيه عامين! وإن لم يتغير موقعة قيد أنملة، وإن لم تزدد حجارته، أو ترتفع ذروته أو حتى يتغير شيء في شكله، في نوافذه، في أبوابه!...

تحول إلى البيت الذي حلمت به طويلاً!. اكتملت فيه اللمسات التي أردتها وطالبت بها سامي من أول شهر، والتي وجدها فرصة ذهبية ليحقر من ذوقي، ومن بشاعة الألوان التي طلبتها وأنها لا تناسب ذوقه. منذ ذلك الحين وأنا لم أبد أو أطلب تعديلاً أو تغييراً فيه، حتى لو كان على مستوى بسيط جداً !...

ها هو البيت الآن أمامي، تماماً كما حلمت، كما أردت وتمنيت! زرعت أشجار الياسمين في الأماكن التي اخترتها، قريبة من النوافذ، في الأحواض المحيطة بها، وقريبة من سور المنزل، لتتسلقه، ويمكن رؤيتها من كل نوافذ المنزل الذي يتوسط حديقة متوسطة الحجم!...

تم استبدال الجزء الأمامي للحديقة، والغير مزروع بالحصى الصغيرة عوضاً عن الأرضية الخرسانية التي تثير القلق وتبعث على التوتر من شدة وصلابة منظرها. الحصى الأسود الناعم، تعشق صوت وقع أقدامك عليه، وصوت سير عجلات السيارة فيه، إضافة إلى انسجام لونه الأسود مع باقي ألوان أشجار الحديقة!.

عبرت الحديقة وأنا فاغرة فاهي دهشة من سرعة قيام سامي بكل ذلك حيث لم تتجاوز الفترة التي جلستها في منزلنا قبل قرار ذهابنا إلى عدن، الشهر والنصف تقريباً! قبل أن يشد انتباهي على اليمين الجزء المرصوف بالحجارة البيضاء تتخللها فروع الحشائش! حتى هذه لم ينساها، ليس هذا فحسب بل إن الطاولة الخشبية والكراسي التي تمنيت شرب شاي الخامسة عليها والاستمتاع برؤية الحديقة موجودة وهو الذي حَرَّم علىَّ الخروج إلا في المساء خشية رؤية الجيران لي! رغم انشغال الجميع بحالة وبمراعاة حقوق الجار أيضاً، لكنه عقل سامي وشكه في كل شيء، ومن لا شيء ومن الصعب تغييره!.

ها هو الباب الرئيسي للمنزل الذي طالبت بتغييره، من الألمنيوم وإن بدا معالج بطريقة حديثة وقيمته أكثر كلفة من الخشب، إلا أن للخشب تأثيره وسحره على العين. استبدلتُهُ بباب خشبي كبير يشبه إلى حد كبير باب منزل أهلي! المرتبط بمخيلتي بذكريات جميلة لا تنسى، ويعلم سامي كم أحبه وأتباهى بقوته وصلابته وصموده أكثر من ثلاثين عام، محتفظاً بشكله وهيئته دون تغيير!.

الزخارف الخشبية في أطراف الباب اختيار سامي، كانت تلاعب بخمسة حروف فقط، تتحد أحياناً لتكون اسمي "فرح" يتكرر الاسم ويتحول حرف الحاء في نهاية اسمي بداية لكمة "حبي"، تأملتها طويلاً في كامل أطراف الباب، كانت منفصلة وبشكل واضح للعين في الجزء الذي يعلو مقبض الباب تماماً، وتسمح للداخل برؤيته بوضوح "فرح حبي"...

آه سامي، لم أسمعها يوماً منك! ولم يصلني صدقها كما وصلني الآن! وجدتني حال قراءتها، أهوي على الأرض، افترشها، انخرط في البكاء بشكل هستيري! لا ادري ماذا كنت اندب، هل أندب حباً غادرني إلى الأبد، أم حظا عاثراً حرمني أمنيات كثيرة!. و كأني للتو فقدت سامي! كأني للتو سمعت خبر وفاته!. كم هي قاسية الحياة معي في تلك اللحظة! يعلم جيداً أن تغيير الباب في حد ذاته سيلفت انتباهي، متأكداً من أن الموضع الذي وضع فيه كلمتيه سأحدق فيه مليا قبل الدخول! يعلم كل أشيائي الصغيرة وتفاصيل أقدسها دون أن يبدو عليه ذلك يوما ما أو يحدثني بها!.

أي تناقض غريب ذلك الذي كان يحمله في قلبه! أي قوة جعلت منه هكذا، كتلة تناقضات متحركة، اختنقت كل العبارات التي أردت الحديث بها لسلى التي أصرت على مرافقتي للمنزل، اكتفت بأن ترمقني بنظراتها الحانية وتربت على كتفي قبل احتضاني والبكاء معي! تعلم قسوة هذه اللحظات عليّ وتعلم أكثر أن لا كلام سيفي الموقف حقه، فآثرت معي الصمت! كم هي عظيمة

سلى، كم هي رائعة ومدهشة في كل تفاصيل وقوفها إلى جواري وفي أحلك الظروف وأشدها سوداوية وقتامة على قلبي! ما كان يقلقني وأنا ارمقها في تلك اللحظات، ويزيد من همي وحزني هو سفرها بعد أقل من أسبوع من الآن، عودتها لفرنسا مع ولديها، بعد الاطمئنان علينا!...

أمسكت بي، نهضت وأنا اكفف دموعي، لم استطع التحكم بها، أو إيقافها!. حال ولوجنا المنزل أرعبتها شهقتي وأنا أتجول بنظراتي في أركانه، يا الهي، لا اصدق ما أراه أمامي، لا اصدق أن سامي فعل كل ذلك! كم كان دقيقاً هذه المرة في تعديلاته للمنزل وأركانه المختلفة! بل كم كان شديد الإنصات لي وأنا أقولها في الشهر الأول لزواجنا ولم أكررها أبداً، لكثرة ما كان يسخر منها!. مذهل ما فعله سامي بالمنزل من الداخل! ربما لو أشرفت على هذه التعديلات لم تكن بمثل هذا الجمال والدقة والروعة التي أراها أمامي!...

أزال كل الحوائط التي تعيق الحركة والرؤية في الدور الأرضي. أصبح فضاء واحداً فسيحاً، متنوع الأثاث متناسق الألوان. تستلذ العين النظر إليه، يشدها تنوع زواياه، يبهرها توحد رؤية كل شيء فيها مهما اختلفت تلك الزاوية.

استبدل طلاء الحوائط من الأبيض الذي يحبه إلى الأخضر الفاتح، يعلم كم أعشق هذا اللون بدرجاته المختلفة، وسحر تناسقه وتناغمه مع اللون الأصفر و الأزرق، تدرجت هذه الألوان بهدوئها من الداكن على

سجاد الأرضيات وتداخل بعض ألوان الستائر وكنب الجلوس، إلى الفاتح الذي شمل باقي الأثاث. غرف النوم التي في الدور الأول أيضاً استبدل جميع أثاثها لتتناسق وتتناغم مع أثاث الدور الأرضي رغم ندرة استخدامها!.

غرفة نومنا الرئيسية، وقفت أمامها طويلاً، ما الذي لم يفعله فيها؟ ما الذي نسيه من حديثي ورغبتي في تعديلات جذرية فيها؟ لا شيء، فعل كل شيء وكأنه كان يكتب كلامي حتى لا يفوته شيء، أو ينسى شيء!. ضم الغرفة المجاورة إليها، أصبحت مساحتها أوسع. أخذ جزءاً منها كخزانة ملابس داخلية عوضاً عن دولاب الملابس الذي أكل جداراً كاملاً في الغرفة، رغم فخامته ونوع خشبه الغالي. اختفى بذلك باب الحمام حيث يتم الدخول والخروج مروراً بخزانة الملابس لتصبح الغرفة بذلك فضاء مريحاً! يمكن قضاء أمتع الأوقات فيها خاصة في شرفتها التي تطل على الحديقة، رغم أن الخروج والجلوس فيها أيضاً كان من جملة الأشياء الكثيرة الممنوعة بأمر سامي! حتى لا يراني أحد فيها، وهو يعلم أن ارتفاع سور حديقته يمنع الهواء من المرور لشدته وليس النظر فقط!... حتى إضافة كرسيين للجلوس، وارفف تصلح لمكتبة صغيرة داخل الغرفة لم ينساها سامي، الذي بدت لي تصرفاته واهتمامه الشديد بتنفيذ رغباتي مهما كانت صغيرة، إنسان آخر، من الأفضل أن لا أبحث له عن تفسير لأفهمه، لأن فهمه في هذه اللحظات أمر غير مجدي بالمرة! له ولي!...

ربما لذلك استمعت إلى نصيحة سلى بعدم التدقيق أو السؤال في محتوى ملف، بدا وضعه في مكان سهل الرؤية متعمد لسرعة معرفة محتواه!... تقارير طبية، ما نوعها لا أعرف ! وعن أي مرض تشرح؟ أيضاً لا أعرف! كل ما أعرف ه أنها كانت باسم سامي، وتاريخها يؤكد أنها قريبه لم تتعدى الأشهر الستة!.

سلمت الملف لسلى عن قناعة لتحتفظ به فيما لو دعت الحاجة له يوماً ما! وجوده أمام عيني سيحرضني على معرفة كل ما فيه، وأنا وصلت لمرحلة أريد أن اطوي فيها هذه الصفحة من حياتي!...

في اللا توقع، مجدداً!...

لن يصدق أحد الحالة التي وصلت إليها بعد انقضاء فترة "الوجل" على وفاة سامي، والبقاء في البيت مدة الأربعة أشهر والعشرة أيام المفروضة! دون الخروج منه!. تناوبت شقيقاتي وبعض صديقاتي على زيارتي وقضاء بعض الوقت معي. كنت في غاية الإنسجام مع نفسي، مع العيش وحدي لأول مرة، مع وقتي الذي أتصرف وأتحكم فيه كما أشاء، مع نومي الذي أصحو منه أيضاً متى أشاء دون رقيب يوبخني على الزيادة منه! أو تنغيصي بطلبات تحرمني منه!...

هدأت نفسي، استعدت نشاطي، بدأت أحلم بالعودة لعملي واستئناف ما انقطعت عنه منذ ما يزيد عن العامين! أحلم بالجزء الذي يلي كلمة "ماذا بعد!" لأقوم به، لأحققه، لأسعى إليه دون قيد أو شرط! لي مطلق الحرية في الاختيار، وأملك كل وسائل التنفيذ!...

لن يصدق أحد ما وصلت إليه لأني كنت أول المندهشين! والمتسائلين عن أسباب هذه الحالة والبحث عن الحلول للتغلب عليها دون فائدة! من غير الممكن أن أصل للمرحلة التي تسمح لي بالقيام بكل ما أريده، وارفض القيام به! دون سبب واضح وبكامل إرادتي!..

هل أرهقني كثرة السعي لذلك؟ هل وصلت إلى مرحلة لم اعد استطع فيها المجابهة مهما كانت بسيطة!. لم يعد هناك الكثير لأحارب للوصول إليه، أم أن المتعة كانت في الصعوبات التي كنت أواجهها! بإمكاني الآن القيام بتحقيقها، أحلامي التي جاهدت لأجلها! ها هو الحظ يصادفني وأحصل على كل ما كان حتى وقت قريب مستحيل التحقيق! لِما تصيبني هذه الحالة! وفي هذه المرحلة بالذات! أي تناقض هذا الذي أمر به، ولا أجد له تفسير!...

لم أقطع إجازتي من الجامعة بل طلبت تجديدها! لم يعد يشغلني أمر الدراسات العليا أو مواصلة تحقيق طموحي في أي شيء!. دوامة من الاكتئاب ابتلعتني في جوفها!... تتقاذفني أسئلة لا حصر لها! تفتت دماغي، تصيبني بصداع مستمر، أصبح بعده غير قادرة على التفكير، غير قادرة على القراءة، على الكتابة، غير قادرة على الكلام والصمت في آن واحد!...

أكاد من تعبي أموت من التعب، وأكاد بمن حولي اختنق، يصيبني الأرق ويحبس عني النوم، يسلب أجفاني لذة النعسة وحلاوة السِّنة والرقاد. يصيبني الخمول، ألبسه ثوباً تمتد أذياله إلى خيوط الفجر و أشطان الضوء.

ساعات متباطئة، كل ما أستطيعه عند ذوبان الليل في أنفاس الصبح المتصاعدة أن أطفئ أنوار المصابيح التي باتت معي طوال تلك الساعات، وهي تبحلق فيّ بصمت!.

أشعر بالوهن يداهم جسدي، بالضعف ينخر أعماقي، أتناول المهدئات بشكل هستيري لأشعر بالراحة، لأنام، لأواصل الحياة التي لم أعد راغبة في الاستمرار فيها لكني اخشي أن تنقطع تلك الشعرة التي يحكون عنها وأصاب بالجنون!. أحاول جاهدة محاربة أفكار سوداوية تنتابني في لحظات ضعف لا قدرة لي على مجابهتها! يصبح فيها تناول علبة أسبرين أو إفراغ ما في علبة مهدئات إلى جوفي أمنية الأمنيات! الراحة الأبدية التي أنشد! الحياة التي لم أعد قادرة على الاستمرار فيها!...

اقتراحات هلت على من كل حدب وصوب، أهلي، صديقاتي، جيراني، بالخروج من المنزل! بالسفر! بتغيير المحيط الذي أنا فيه! بالابتعاد ولو مؤقتاً عن البيت الذي سحرني وسبب لي كل ذلك العناء. بعد مجاهرتي بأنه أصبح مملكتي الأثيرة! وحلم الاستقرار والعيش في الهدوء الذي نلته بعد طول انتظار. لم يعد المال عائقاً!، ولا موافقة أبي وشقيقي أيضاً عائقاً!، ولم تعد حسابات المجتمع والخوف من فهمه الخاطئ أيضاً عائقاً!.

يا للعجب، في هكذا حالة، أصبح أمام المجتمع إنسان آخر، إنسان يستحق السفر للعلاج أو للاستجمام!، إنسان لن يناله سياط تذمرهم أو غريب نظراتهم! إنسان يستحق

الشفقة والرحمة والدعاء له بالشفاء! لأنه باختصار أصبح أطلال إنسان، أنقاض إنسان!...

ومع ذلك رفضت كل ذلك دون أن أعرف لرفضي سبباً أو ابدي ذريعة للتحجج، رفضت دعوة سلى لزيارة باريس والبقاء معها ما شئت! بل إنني عاملتها بقسوة، رغم علمي بقلقها والحالة التي ستكون عليها من جراء ما تسمع عن تدهور حالتي الصحية و النفسية!. رفضت أيضاً العرض المغري من أبي بمرافقتي للسفر لدمشق واستعادة أروع ذكرياتنا فيها!. رفضت السفر لقريتي الصغيرة المتربعة فوق جبل أشم يلامس السحاب، لاستعادة ذكريات زياراتي المتعددة لها في طفولتي مع أشقائي!. رفضت الانتقال لمنزل والدي. قد يساعدني تغيير المكان في كل الحالات على تجاوز كل ذلك، دون فائدة!.

وصلت إلى مرحلة لم أكن أعلم فيها ما أريد، شاردة الذهن، زائغة البصر، نادرة الكلام! حتى مع صديقاتي المقربات إلى قلبي أثناء بقائهن إلى جواري معظم أوقات العصر والجزء الأول من الليل! يتناولن القات ويدرن أحاديث كثيرة ومناقشات مشوقة كانت تستهويني! جعلتني أتخلى عن صمودي أمام القات وأتناوله معهن، بعد أن أصبحت مقايل النساء تضاهي مقايل الرجال في تلك الفترة!، وأصبحت الشلل من الصديقات يجتمعن آخر الأسبوع لتناول القات والترفيه عن ضغوط العمل، وحتى لا أكون خارج السرب، ولما تفعله هذه "اللمة" الجميلة والرائعة من الصديقات من ضحك ومرح وتبادل

مواضيع حياة متنوعة، أصبحت أتناول القات. استمتع بطقوس استقباله، وطقوس تناوله معهن! حتى لو كان ذلك يوماً واحداً فقط، لكن له مذاق رائع ومدهش!...

لكنى كنت هذه المرة في عالم آخر، عالم لا أعرف كنهه، عالم غريب، لا أحتمل العيش فيه أو البقاء أكثر من ذلك، عالم اسأل نفسي آلاف المرات لما أنا فيه! وما فائدة وجودي على سطحه وتمتعي بهوائه وشمسه وقمره!... أخشى الموت، الموت الذي يأخذنا من بين أحبائنا وينتزعنا من بين أيديهم انتزاعا لا تراجع فيه ودون إشعار سابق، الموت الذي لا أعرف إن كان خلاصاً لي من التعاسة والألم والعذاب، خلاصاً من الشقاء الطويل الذي يصاحبنا منذ يومنا الأول في هذه الدنيا! أم أنه عكس ذلك تماماً. أنه المجهول الذي لا يفتى في أمره أبدا! ولا يمكننا التفكير فيه "إلا بوصفه موت الآخرين" كما قال سيجموند فرويد، العالم النفسي الشهير، رائد التحليل النفسي!...

لم يعد حتى البكاء قادراً على أن يمدني ببعض الراحة والسلوى كما كان دائماً بالنسبة لي. لم يزدني هذه المرة، قوة وصلابة لأقف في وجه الحياة بكل تحدياتها. لم يعد ذلك اللحن الحزين الذي يعيد لروحي كل المعاني الإنسانية السامية!...

البكاء، أعمق تعبير لرسم مشاعر شتى تختلج في أعماقنا، نترجم به عن بعض انفعالاتنا، يصبح التعبير الصادق والصورة الحقيقية عما تجيش به النفوس. يخفف بعضاً من هموم حياتنا، يذيب أنين وألم ذكرياتنا، يرفعها

إلى مكان قدسي في أعماقنا، لتصبح شدواً شجياً تسمو معه كل مشاعرنا البشرية... آه لم أعد قادرة حتى على البكاء!...

فقدت ذلك الجزء المضيء في عتمة القلب! الأمل الذي كان ينير كل الطرق المظلمة من حولي. ويدحرجني فوق أشواكها دون ألم! إنها رسائل هشام، الرسائل التي أصبحت تجاهر بوجودها في بيتي، وفي ظهورها بفخر أمام عيني، بعد أن ظلت لأعوام حبيسة درج مكتبي الخاص في منزل والدي، أزورها بانتظام واقرأها بنفس الشوق واللهفة كل مرة! دون ملل يصبني أو ضجر... لماذا لم يعد لقراءتها تلك الفرحة، ولتصفحها ذلك السحر الذي يعود بي للماضي، لبهاء تلك الأيام وروعتها معه، لم تعد قراءتها تشد وثاقي بقوة حول حروفها، أملا في رؤيته و اللقاء به ومعرفة أسباب غيابه دون مبرر!...

لم أتخيل اليوم الذي يأتي وانفخ التراب من سطحها لطول فترة إهمالي لها! لا تستحق رسائل هشام كل ذلك مني، لا تستحق لأني مدينة لها بأشياء كثيرة، رسائله، علمتني فن الحياة مع نفسي، مع الناس، مع من أحب ومع من أكره! علمتني كيف أشعر بالسعادة، وكيف أكون مصدراً لتحقيقها لكل من حولي! علمتني أن أصدق الحب هو التضحية المطلقة من اجل من نحب، وأن ما يبدؤه الحب لا ينهيه إلا الله. علمتني كيف أكون فناناً لا يعرف كيف يمسك بالريشة، وموسيقياً يجهل العزف على آلته،

وبحاراً يصارع الأمواج ولا يجيد السباحة! لأن الإحساس بكل ذلك يفوق ممارسته بمراحل!...

كم أجدها في هذه اللحظات قادرة على إعادة علاقتي بالحياة، على استمرار اشتعال جذوة الأمل في نفسي! على إخراجي من بشاعة ما وصلت إليه من حالة الإحباط واليأس التي تجاوزت الستة أشهر دون تقدم يذكر. يكفي أن أردد بعضاً منها في أعماقي بعد أن أصبحت أحفظ اغلبها عن ظهر قلب، يكفي أن أنظرها، أن المسها، أن أعيد الماضي الجميل في ذاكرتي، أن أتفنن في حبكه، حلم يقظة ينتهي بكل السعادة في عودة هشام ومعرفة ما كان عن أسباب غيابه، والاهم أنه عاد، لأنه يحبني ويرغب في استمرار حياته معي!... حتى هذا لم أعد قادرة عليه. ألم أقل أن أحداً لن يصدق ما وصلت إليه حالتي!... وكأني استلذ بتطبيق عبارة أوسكار وايلد: (إن أصعب شيء تقوم به في هذا العالم، هو ألا تفعل شيئاً على الإطلاق، هو الأصعب، وهو الأعقل!...)

سلى

تعلم جيداً كيف تعاملني وتجعل مني كائنا آخر!. منذ زمن، منذ أن شهد الشارع المؤدي للمدرسة أروع أيامنا. وحفظت جدران الغرفة خاصتنا كل أسرارنا، وانتشت حديقة منزلنا الصغيرة وأشجارها المثمرة وورود القرنفل المتناثرة على تربتها، براءة لعبنا وجدل حواراتنا!. تقرأ من صفحة وجهي خبايا أعماقي. لا أحتاج أن أشرح لها مواقفي أو أبرر تصرفاتي نحوها ونحو المحيطين بي، لأنها تفهمها جيداً. تقذف في وجهي كلمات غاية في الرقة والعذوبة وهي تصحح خطأ قمت به، أو كلمة نابية زل بها لساني!. تماماً كما أفعل معها ويصلها شعوري صادقاً وسريعاً أكثر مما أتصور!...

سلى، اسم على مسمى! مصدر سلى و سعادة لجميع من حولها. لا أحفظ لها في ذاكرتي موقف عبست فيه أو رفعت صوتها أو حتى فقدت أعصابها كما يفعل أغلب البشر! وعاء يحتوي كل ما يقذف فيه بحنان وحب من الأعماق!...

قادرة وبمهارة على إخفاء ألمها، ما دام في مقدرتها احتماله، نفسياً كان أو جسدياً. دون أن تسبب هم الشكوى لأحد حتى لو كنت أنا!. شقيقتها الكبرى وخازنة أسرارها

الأمينة!. متسامحة لدرجة هضم حقوقها عن قناعة تامة. تدحرج قولها أو وجهة نظرها بمنتهى الرشاقة للآخرين. تتعامل معهم بتعالي عن الصغائر التي يتشبثون بها. تضع لهم أعذار لأخطائهم حتى لو تم إيذاءها. تفضل الانسحاب بهدوء من معارك تكون فيها الفائزة الوحيدة، على الاستمرار بأقل الخسائر!...

سلى، سلى على العين برؤية وجهها الملائكي. سلى على القلب بنقاء سريرتها. سلى على النفس بصدقها الذي لا يخذلك حنانه، يصلك شفافاً مباشراً محققاً غرضه في لمح البصر ليحلق بك في ملكوت روحها البهية!.

سلى، تعلم كيف يصلني فهمها لتصرفاتي تجاهها! انقطاعي عن الحديث المفاجئ معها في معاناتي مع سامي!... عدم الاستمرار في مراسلتها بعد سفرها لفرنسا. القسوة غير المبررة لرفض دعوتها لإخراجي من حالتي تلك! تجاهل الرد على رسائلها بعد أن ابتلعتني دوامة اليأس في سوادها القاتل!.

لهذا كله، قررت أن تفعل ما فعلته!. أن تستخدم معي الكي بالنار! الذي سيترك أثرا لكنه يشفي من العلل!. أن تستخدم الصدمة الكهربائية التي سيمارس بعدها العقل والجسد كافة نشاطه!... أن تقول لي يكفي ما فعلته بنفسك طيلة الثلاث أعوام الماضية!...

أعذارك النبيلة لتحمل قسوة الحياة مع سامي والاستغناء عن أحلامك لم يكن غير انهزام!... منحك لسامي بدل الفرصة عشرات الفرص لاستمرار الحياة بينكما على حساب مبادئك وطموحك في الحياة، أيضاً لم

يكن غير انهزام! وجبن في مواجهة نفسك أولاً! والمجتمع الذي أرعبك وجودك فيه وأنت مطلقة ثانياً! وقوعك في براثن الاكتئاب التي لا ترحم ونهشها لعقلك وجسدك بعد موته، أيضاً انهزام! انهزام! انهزام!...

هذا كل ما أرادت سلى قوله لي وان لم تخرج عبارة واحدة من بين شفتيها. مكتفية بإرسال الدواء الشافي، دون أن تخبرني كيفية استخدامه، معتمدة ربما على ذكائي الذي عهدت في تحليل الأمور. لم تعلم أنني لم أعد قادرة على إدراك حتى ذاتي!...

دواؤها، كان ظرف مغلق أرسلته من باريس كتبت عليه "أنت أهم من تحذيراتك بعدم معرفة المحتوي"!... بداخل الظرف ملف لأوراق تخص سامي، تقارير طبية وتحاليل لم افهم منها شيئاً عندما وجدته حال دخولي المنزل وطلبت منها إخفاءه لعدم قدرتي على تحمل أو معرفة أي شيء!... مضافاً إليه ترجمة واضحة لتلك التقارير الطبية!...

لم أقرأ محتوى تلك التقارير للوهلة الأولى. كان على أن أهدا ضربات نبض قلبي التي تسارعت بشكل جنوني وكأن سامي يقف أمامي بكامل هيئته! يحذرني كما كان يفعل من التدخل في خصوصياته!. كلماته المفضلة عند سؤالي له في أي موضوع. استجمعت بعدها كل قواي لتحمل صدمة جديدة واكتشاف مذهل جديد لسامي! يشبه مفاجأته المقرفة لي وهو على قيد الحياة!.

التقارير عليها جميعاً اسم سامي، يلي اسمه التشخيص الطبي: خمس كلمات فقط "سرطان البروستاتا المنتشر

في مراحله الأخيرة" لم أفهم سوى كلمة سرطان البروستاتا! أما المنتشر: احتجت أن أبحث في بعض الكتب والمجلات العلمية لأعرف ما هو وماذا يعني المنتشر هذا؟.

بدوت وأنا أبحث كالتائهة وسط كم هائل من التساؤلات المتشعبة عن حقيقة مرض سامي وحقيقة تلك التقارير! ولمَ لم يخبرني بها سامي! زاد في ارتفاع وتيرة هذه الحيرة ما عرفته عن هذا المرض، سرطان البروستاتا المنتشرProstate cancer: المرض الأعلى نسبة بين كل الأورام السرطانية التي تصيب الرجال بعد سن الأربعين. يتوغل في الجسم دون أن تظهر له أي أعراض لذلك يتم اكتشافه وهو في مرحلة متقدمة جداً لا تسمح بتداركه. الورم المنتشر هو الأخطر، لأنه يجعل الخلايا السرطانية تنتقل إلى أعضاء أخرى كالعظام والرئة والكبد مكونة أورام أخرى، تسبب آلام مبرحة للمريض! تؤدي إلى الوفاة بعد فترة وجيزة من اكتشافه!...

أعدت القراءة في التقارير وفي المعلومات التي أمامي مرات عديدة! مشفقة على سامي من هول اكتشافه لمرضه، ومن معاناته في تلك الفترة قبل وفاته! وبدأت في لوم نفسي أنني لم أكن إلى جواره، ولم أقدر عصبيته وتغير أحواله التي بسببها حدثت مشاكل كثيرة بيننا غادرت على إثرها لمنزل والدي! وبينه وبين أهله! وأشقائه بحكم عملهم معا!...

في آخر مرة للتصفح وقبل أن اقفل الكتب العلمية التي استعنت بها، بدت لي معلومة ملفته للنظر وغريبة تقول: "سرطان البروستاتا المنتشر هو الأخطر، ويصيب واحد من بين 2500 رجل بعد سن الأربعين!". سامي كان في بداية التاسعة والثلاثين عندما توفى! زواجنا تم وهو في السادسة والثلاثين، كما أخبرني بذلك أبي وشقيقي حال تقدمه لخطبتي. فكيف يصيبه هذا المرض، ولم يصل للأربعين بعد!...

لم أدقق يوماً في عقد زواجنا أو وجواز سفره أو حتى بطاقته الشخصية، لأنه كان حريصاً أن يضع كل أوراقه في الخزنة الخاصة به مع أوراق عمله الهامة. حتى أنني لم أندهش أو استغرب أنه حاول أكثر من مرة إخفاءها سريعاً فيما لو تأكدت من تفتيش جيوب ثيابه قبل الغسيل أو الكي! وكأنه يخشى أن أكتشف شيئاً ما!.

بحثت في التقارير الأصلية، لأتأكد من العمر، لابد وأن فيها تاريخ الميلاد، أو حتى مذكور عمر المريض! لصحة إجراء الفحوصات والتحاليل! وكما توقعت الخانة التالية للاسم في كل التقارير، هي خانة عمر المريض. وفي كل التقارير أيضاً، عمر المريض، سامي هو خمسة وأربعون عاماً!...

آه، يا رب، ارحمني من هذه الاكتشافات المذهلة! خفف عني هذا العذاب الذي ينهش عقلي في هذه اللحظات بأسئلة لا حصر لها! أسئلة قد تمزق الإجابة عنها علاقتي بكل المحيطين بي! بكل من أحبهم! أبي، أمي، شقيقي!...

أول هذه الأسئلة، الذي يطرح نفسه بمنتهى الموضوعية، هل كان أبي يعرف فارق السن بيني وبين سامي عندما أقنعني بقبول الزواج منه؟ أم أن شقيقي أخفى عنه هذه المعلومة، ليقينه من انه سيخيرني ليعلم رأيي في قبول زوج يكبرني بخمسة عشر عاماً!؟ وله طبعاً مبرراته: حتى لا يطير العريس الغني ابن الناس من بين يديه!...

الأدهى والأمر من ذلك، هل سبب تغييرات سامي المفاجئة واعتذاره لي، وطلبه استمرار الحياة الزوجية بيننا، كانت قبل أم بعد معرفته بمرضه؟ وهل اقتنع بعدم جدوى علاجه لصعوبة المرحلة التي وصل إليها المرض! خاصة وأن دراسته الأصلية هي الصيدلة، ويعرف مدى تأثير الأدوية على مرضه، وقرر هو أن ينهي حياته بذلك الحادث الذي لم أعرف كيف تم! إلا وأنا في المستشفى! وإذا كان فعلاً قد قرر إنهاء حياته لعدم قدرته على احتمال الألم الذي سيسببه له مرضه الخبيث بعد ذلك؟ فما ذنبي أنا ليحاول إنهاء حياتي معه! في تلك السيارة اللعينة التي انقلبت ونحن في طريقنا لعدن!...

ربما هذا يفسر عدم تفاجؤ أهله بخبر وفاته. عدم الشعور بالحزن الشديد الذي تسببه هكذا وفاة!. كانوا يعلمون بمرضه وبصعوبة شفائه وان موته بهذه الطريقة رحمة له من الآلام الفظيعة التي كانت بانتظاره!...

الجميع على ما يبدو كانوا يعلمون باستثناء تلك الغبية التي لا تحلل ولا تفسر وتستبعد كل الشر في نفوس

البشر! ولا تحب أن تعاملهم من هذه الزاوية، واسمها فرح!!! نعم كنت أنا الغبية التي لا أملك من الفرح ولو أمارة واحدة تدل عليه في حياتي!. اسم على غير مسمى. عذاب يلاحقني وشقاء يمسك بتلابيبي بكل ما أوتي من قوة!.

آآآه، رأسي يكاد أن ينفجر، لم أعد قادرة على إدراك أي شيء أو تفسير أي شيء، لم أعد قادرة على البحث أو الحديث في هذا الموضوع أو حتى العتاب، لأهلي وربما أهل سامي، لأن كل ذلك ليس له نتيجة، و إيجاد تفسير له دون جدوى ستعود على كل الأطراف. الإصرار على مواجهته سيفتح مزيدا من الجروح ومزيداً من الألم ونتيجته خسارتي ربما لمن أحب، وهذا ما لا أتمناه أبداً!...

كم أنا بحاجة إلى نسيان كل ذلك! إلى إزالته من ذاكرتي، نعم أنا قادرة على ذلك، قادرة على أن أواصل ما بدأت، لن يهزمني سامي حتى وهو بين التراب! بل لن يهزمني بعد الآن رجل على وجه الأرض!!!... كم هم بارعون الرجال في نسج أكاذيبهم، وارتداءها صدقاً أمام الآخرين. كم هم قادرون على العيش بعدة أوجه في نفس اللحظة! كم هم فنانون في نحت مشاعرهم ورسمها. لوحة لا تشك في أنها أصلية، تعلقها على جدار قلبك، تبهرك دقتها وتمتعك رؤيتها، لتكتشف ربما في اليوم التالي وربما لا تكتشف أبداً أنها مزيفة!.

أحرقت الملف بتقاريره حال انتهائي من تلك الحالة الفظيعة التي غشتني لساعات! ارتديت ملابسي في

الحال، أطلقت لقدمي العنان، كنت بحاجة إلى أن أتنفس هواء نقياً لينعش كامل جسدي بل وعقلي كما لم يفعل منذ زمن!.

كنت بحاجة إلى أن أسمع صوتها، سلى، إلى أن اخبرها بأن رسالتها وصلت، وأنني فهمت الدرس جيداً، وللتو قبلت دعوتها في أقرب فرصة لزيارة باريس. وأنني أولاً وأخيراً في ملكوت حبها و حنانها أمتلك ناصية العالم!...

ثورة!

بعد إحراق ملف سامي الطبي وتحوله أمام عيني إلى رماد نفخته خارج بيتي بكل ألمه ومتناقضاته، عدت للنوم وكأني لم انم منذ سنين بهذا العمق وتلك اللذة! وربما تكون المرة الأولى التي لا تنتابني فيها كوابيس أو أحلام مزعجة!...

اليوم الذي تستيقظ فيه وقد أزلت عن جسدك غبار السنين الماضية. بدا لك سطحه لامعاً، شفافاً، لا يخفي عنك شيئاً من مكتنز أعماقه! مع ذلك ستنقي منه كل شوائبك، كل ما يكدرك ويؤلمك وستلقي بها في اقرب سلة مهملات!...

ستوطد فيه علاقتك بروائع حياتك، بذكرياتك، التي حمتك في لحظات ضعف مدمرة عصفت بك مرارا، وانتشلتك من غرق الانهيار في بحر أحزانها!...

ستقرر فيه أن تثور على إنسان البارحة في أعماقك! أن تقود عملية انقلاب سلمية، هادئة، شفافة، لتغييره.

لتحديث مفاهيمه في الحياة، ولترسيخ مبادئ جديدة في قاموس معاملاته مع ذاته ومع الآخرين!...

سيتجدد فيه كل شيء في حياتك، ستفاجئك المرآة بتألق ملامحك، ببريق عينيك، باعتدال أنفك، بنظارة بشرتك، بحلاوة فمك وسلاسة شعرك!. باختصار ستبدو جميلاً وأنت لم ترى نفسك يوماً كذلك!...

ستقرر فيه أن تعود طفلاً، أن تحبي متسلقاً ساعاته منتشياً بسماع قهقهاتك. سعادة قررت أن تستوطن حياتك إلى الأبد!... بعده سيستمر كل شيء توقفت عن فعله!. عملك، قراءاتك، علاقاتك مع ذاتك ومع الناس من حولك!...

لن تغادر شفتيك في كل لحظة من لحظاته عبارة الكاتب والمفكر العظيم دستويفسكي بعد خروجه من غياهب السجن، الذي قضى فيه مدة طويلة مجيباً على سؤال صديقه بوصف شعوره في تلك اللحظة: "إنها لحظة لا سبيل إلى وصفها".

ستنهي كل عمل لك بنجاح مشيراً بأصابع يدك أمام عينيك بعلامة النصرV: الحرف الأول لكلمة نصر باللغة الإنجليزية **Victory** لتدرك روعة هذا الشعور الذي ربما يشبه شعور البريطانيين في تلك اللحظة بالذات وهم يستقبلون بها صاحب الدماغ الكبير - كما أطلق عليه الأوربيون - "ونستون تشرشل" حال عودته منتصراً في الحرب العالمية الثانية!...

ونستون تشرشل، ذلك السياسي العبقري صاحب الدماغ الكبير الذي اختير فيما بعد عضواً بمجمع اللغة

البريطاني لسعة إطلاعه في شؤون الفن والأدب إلى جانب السياسة. إضافة إلى إجادته للرسم، وتمتعه بذاكرة قوية مكنته من حفظ أرقام هواتف، وأرقام اللوح المعدنية لسيارات أصدقائه وأقاربه وباعة السجائر والمجلات، ولم يحمل يوماً مفكرة صغيرة في جيبه، بل كان يحمل مفكرة كبيرة في ثنايا عقله!.

اليوم الذي ستبتسم في قرارة نفسك لعبقرية تشرشل وقدرته الخاصة جداً في هذا الجانب! وقدرتك الخاصة أيضاً وطريقة تفكيرك، وأنت تعيد ترتيب مفكراتك الصغيرة الخاصة بالتلفونات، وترص المفكرات الكبيرة الخاصة بكتابة اليوميات في دولابها الأمين.

قبلها كنت قد انتهيت للتو من تجهيز مفكرتين جديدتين لهما ذات اللون، صغيرة للتلفونات وأخرى لكتابة يوميات العام الجديد، الذي للتو ستبدأ أول أيامه حتى لو لم يشر إلى ذلك تاريخ متفق عليه. إنه تاريخ خاص بك وحدك! لا يشاركك في كتابته أحد!... تبدأه وأنت مبتسم بعد أن تأكدت من نجاح ثورة اليوم في أعماقك وترسيخ مبادئها، شأن كل الثورات!. لم يعد أمامك سوى تحقيق أهدافها، والمضي قدماً دون الإلتفات للخلف!...

خطوة أولى

استقبلني الجميع بفرح غامر، مدرسو وطلبة قسم الفلسفة. بدا ذلك واضحاً من التفافهم حولي مهنئين بعودتي واستئناف العمل معهم. طلاب السنة الأولى الذي كنت معهم قبل الإجازة الإجبارية التي كنت فيها، أصبحوا في عام التخرج. يتذكرون بزهو عامنا الأول معاً. أعادوني لأحلى ذكريات معهم، أمطروني بمشاعر صادقة لم تجد عائقاً في وصولها إلى قلبي.

شعرت أني أحبهم أكثر من قبل، وأن المتعة التي أجدها في التدريس وفي مناقشتهم والحديث إليهم في أوقات خارج المحاضرات، لا يضاهيها شيء في وقت العمل الذي أكرسه لهم.

وافق رئيس القسم على طلب إعفائي من التدريس في الفصل الأول. كنت بحاجة إلى عودة ذاتي إليّ وبهدوء. اكتفيت بساعات مكتبية ومساعدة بعض أعضاء هيئة التدريس في القسم، الذي لم يتغير فيه شيء طيلة الثلاث أعوام الماضية!...

طلبة يشكون من سوء معاملة الدكاترة في المحاضرات وتقصيرهم في الشرح، إضافة إلى ندرة الحصول على الكتاب الجامعي!. دكاترة يشكون إهمال الطلبة واتكالهم عليهم في التلقي وكأنهم المصدر الوحيد للعلم، وإهمالهم القيام بالبحوث وإن فعلو فهي ضعيفة لا ترقى إلى بحوث طلبة جامعة!!!.

أراقب الجميع بصمت، أسمع هؤلاء، وأولئك! يبدو أن جذور المسألة لا تتعلق بردي عليهم، بل بالسياسات والمناهج التعليمية التي لا ذنب للطرفين فيها!. وإن كان جانب المدرسين ملام أكثر لاستسلامه لها! وقبولها على عِلاتها وعدم رغبته في التغيير أو التحديث ولو في الإطار الضيق المحيط بهم!...

المثير للتساؤل هم أولئك القادمون من الخارج! من دول عربية وأجنبية تلقوا دراستهم العليا فيها!. استسلامهم! خنوعهم! عدم قيادتهم لأي حركات تغيير! أو وضع مقترحات لها! التذمر الدائم والمقارنة التي لا تفارق ألسنتهم بين الوضع المتخلف القائم لدينا! والوضع المتحضر الذي قدموا منه، ناسين وربما متناسين أنهم أصبحوا جزءاً من هذا الوضع، حتى لو قضوا أكثر من ثلث حياتهم في تلك الدول! لتصبح أي وسيلة خروج لهم من البلاد، غاية يسعون إليها ولا يتوانون عن البحث في كيفية تحقيقها!.

فوجئت عند عودتي للقسم بسفر اثنين من أعضاء هيئة التدريس لدولة الإمارات التي لا مجال للمقارنة بين امتيازات أستاذ الجامعة فيها، من حيث الراتب الشهري

وتوفير السكن وتمويل البحوث العلمية، وأستاذ الجامعة لدينا! ثالث سافر إلى استراليا، وآخر عاد منها بعد أن ترك أولاده وزوجته فيها حتى لا يفوتهم الحصول على الجنسية! ويتناوب هو على زيارتهم من حين لآخر. دكاترة الأقسام العلمية اختاروا السفر لـ "نيوزلاند" دون اهتمام لكونها اقرب الدول لثقب الأوزون أو حتى يعلمون أنها أول البلدان التي تستقبل شروق الشمس لتعلن بداية عام جديد! كل ما يهمهم هو الخروج من البلاد وتوفير أفضل تعليم وصحة وحياة لأولادهم!...

كم كان هشام مختلفاً في هذا الجانب. كم كانت طريقة تفكيره مغايرة لهم، معاملته للطلبة وأسلوبه في التدريس! مبادئه في الحياة التي لا يحيد عنها! وتتضح على تصرفاته وطريقة كلامه وأسلوب نقاشه مع الآخرين! كم كان قريبا من الطلبة، ملما بمشاكلهم، قادراً على أن يزرع فيهم بذرة خير يعلم أنها ستزهر وستثمر حال تخرجهم من الجامعة ومجابهة الحياة العملية!... كم تعلمت منه وأنا طالبته! وكم تعلمت منه وأنا حبيبته!...

(آه، هشام مرة أخرى يا فرح، ألا يكفي ما عانيت، لتعاودي هذه الذكرى التي تغرز أنيابها في جرحك، كلما حاول أن يلتئم طيلة الستة أعوام الماضية دون فائدة! دون فائدة!...).

بعد مرور أقل من شهرين لانتظامي في العمل تم الإعلان عن إعادة منح التبادل الثقافي بين جامعة صنعاء والجامعات الأخرى والتي انقطعت لمدة عامين. لحسن حظي أن هذه المنح إجراءاتها سريعة وتأخذ أعداداً كبيرة

من كشوفات طلبة الدراسات العليا المنتظرين لدورهم في قبول الجامعات العربية والأجنبية لابتعاثهم للدراسة فيها. شعرت بأن الأحداث التي تلت تقديمي لمجلس القسم بطلب ترشيحي لأحدى هذه المنح لاستكمال دراستي العليا تتابعت بشكل مدهش ولم تترك لي فرصة للتفكير! أو الإنتظار لفرصة أخرى أفضل. لن أضيع الوقت!... اخترت القاهرة من ضمن الدول الثلاث التي كانت بيانات المنح باسمها إضافة إلى السودان والمغرب!...

ما أدهشني أكثر من سير أمور المنحة بسرعة فائقة هو أيضاً سرعة موافقة أبي على سفري، مع أني ذهبت إليه وأنا على استعداد لمناقشته والإصرار على إقناعه بكل الطرق. يكفيه حرماني من الفرص السابقة!... وكأني كنت بحاجة إلى أن أمر بتلك التجربة المؤلمة ليسمح لي بالسفر، وبإعطائي الحرية في رسم مستقبلي كما أريد، بعد طول انتظار! ويغير من أفكاره التي لم أصدقها لوهلة. أما شقيقي فقد كانت لهجتي معه رغم أدبها ليست إلا من باب العلم بالشيء !...

عرجت على الكلية لأنهي بعض التوقيعات وأودع من في القسم قبل السفر ليفاجئني رئيس القسم باستدعائي إلى مكتبه، وتسليمي رسالة وصلت إلى بريد الكلية بأسمي. استلمتها وقلبتها بين يدي لأعرف من أين وصلت؟ وممن؟ لا شيء مكتوب عليها غير اسمي!... لكن الخط! يا الهي! الخط! اللون! إنه خط هشام، واللون! إنه الأخضر المفضل لديه! فركت عيني جيد! هل ما أراه حقيقة أم أن شوقي له ورغبتي في وداعه، أصبحت

تصور لي أشياء لا أساس لها من الصحة! لابد أنني أتصورها فعلاً! أو أن تكون الرسالة من شخص غير هشام! هشام يعرف صندوق بريدي بإمكانه أن يرسل عليه! لِمَ يرسلها على بريد الكلية؟ تشابه خطوط إذا! أو تشابه ألوان! أو تشابه لا أدري تشابه ماذا!...

كل ما أدريه الآن هو ضرورة قراءة هذه الرسالة على وجه السرعة! لكن أين! وهل سأنتظر وصولي للمنزل! وإن فتحتها هنا هل سأحتمل ما فيها! وهل بإمكاني تخيل ما فيها!...

السيارة! نعم السيارة أقرب مكان يمكنني الجلوس فيه وحيدة. موقف سيارات الكلية أيضاً مريح لن يزعجني أحد وأنا أقرأ. أسرعت باتجاه السيارة!. من الدرج الخلفي. الدرج الأمامي قد يعيق حركتي، سلام ووداع الطلبة أو بعض المدرسين!.

كم تبدو لي السيارة بعيدة في هذه اللحظات، لكني وصلتها أخيراً، كنت الهث كأني أهرب من الناس جميعاً! أغلقت النوافذ علىّ. أرجو أن لا يأتي سفيان في هذه اللحظات ليأخذ حساب غسله للسيارة! نظرت إلى الساعة، لقد ذهب الآن للمدرسة. أخبرته أن لا يتأخر في انتظاري لأني سأدفع له الحساب اليوم التالي. لكنه أحياناً يصر على انتظاري حتى لو تأخر عن المدرسة، لاحتياجه للمال. فهو العائل الآن لأسرته بعد وفاة والده منذ عامين، يغسل السيارات في الموقف طيلة فترة الصباح ويذهب للمدرسة فترة المساء. يشعر بالمسئولية بشكل لم أجده في أحد في مثل سنه، ويرفض بإصرار

فيما لو أعطيته زيادة على حساب غسله للسيارة!. يرجوني لو أتمكن من تدبير وظيفة له، "مراسل في الكلية" هي حلمه الآن! راتبه سيكون مضمون، على حد قوله: (راتب الدولة كما قالت أمي: ما بش أحسن منه!...) كل هذا وسفيان لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره بعد!...

أرجو أن لا يفاجئني أيضاً حازم، الطالب النجيب الذي كان في سنته الأولي عندما درسته، ومنذ عودتي لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا ويستشيرني فيها، يريد الاستمرار في مستواه ليظل ترتيبه الأول ويتمكن من التقدم لوظيفة معيد. شديد التهذيب في كلامه معي، ألمعي في حواراته! ذكي في معاملاته! ناجح في علاقته بزملائه وبأساتذته، يعرف كيف يثير الانتباه له وبالطريقة التي يراها مناسبة، ولا تفقده أي شيء من الثقة بالنفس وبالآخرين!... يصر حازم ومنذ عودتي للكلية على حمل الكتب التي تكون بحوزتي والسير إلى جواري كل يوم حتى السيارة!...

رغم عدم ارتياحي في الفترة الأخيرة من اختلاسه لنظرات إعجاب تعدت ما بين المُدرسة والتلميذ!، إضافة إلى كلامه المبطن الذي يحمل أكثر من معنى في نقاشه معي، وأقابله بالتجاهل أو عدم الفهم لما يقصد! كل ما أتمناه الآن أن لا يهجم عليّ أحد. أتمنى لو أقرأ الرسالة بهدوء، هدوء، هدوء!...

فتحتها!. كما توقعت، كما أخبرني قلبي، إنها منه، من هشام، خط يده الجميل، لونه الأخضر المفضل، كلماته

الرشيقة العذبة، الساحرة لمشاعري دوماً. أقسم أنني فركت عيني مرات عديدة لأتأكد مما أراه!، وقرصت يدي بقوه لأقول: "آي" لأصرخ وأعلم أنني لا أحلم! وان هذه الرسالة من هشام! وأن هذه الكلمات الرائعة من هشام!، لابد لي أن أكتبها عشرات المرات حتى أحفظها جيداً سأحتفظ بكل نسخة في مكان حتى يسهل على قراءتها في أي وقت وفي أي مكان. أنا حتى الآن غير مصدقة أن ما بين يدي هي رسالة من هشام. سلى أيضاً لن تصدق لكني سأقرأها لها، لابد أن تخبرني أشياء كثيرة عنها!..

ستكون فرصة جيدة أيضاً للاعتذار لها عن عدم قبول دعوتها لزيارة باريس لضرورة سفري المبكر للقاهرة. لابد أن أسمع رأيها فيما يجب على فعله وكيف أتصرف خاصة أنه لا عنوان على الظرف من الخلف لأرد عليه...

كالعادة، جاءني صوتها هادئاً، حنوناً، دافقاً بكل الحب وهي تقول لي: كلي آذان صاغية يا أغلى من في الوجود... قرأت لها رسالة هشام وصوتي يكاد يفضح ما في أعماقي من فرحة برسالته، ومن شوق ولهفة لرؤيته، وإن بدت لي غامضة هذه الرسالة، غموضاً جعلني لأول مرة أشعر أنني لا أفهم هشام...

((فرح: صعبة هي تلك اللحظات التي يودع فيها أحدنا الآخر! صعبة جداً، لا تتحملها عاطفتنا الإنسانية حين تقترب ساعات الوداع وتدنو لحظات الافتراق! وصعبة هي تلك اللحظات التي يلاقي فيها أحدنا الآخر بعد طول

غياب!... إنها مفارقات عجيبة في حياتنا! يودع أحدنا حبيبه فيصيب لسانه الشلل ولا يقدر على الكلام والتعبير. يعز على النفس أن تفارق من تحب لكنها لا تجد مناصاً من ذلك. قد تحضر المرء ساعة الوداع كلمات أو عبارات، لكنها تظل في حلبة فكره ورأسه حبيسة! مقيدة! ربما وقع فيما بينها صراع لينطق بها اللسان فتهدأ كل الانفعالات والمشاعر القلقة، ولكننا نجد فيما بعد أنها لم تتجاوز الحناجر!... قد يعبر عن كل ذلك في أثنائها عاطفة أخرى ليس لنا في كثير من الأحيان ملكة عليها، إنها عاطفة البكاء!. ربما تكون الدموع هي الوحيدة التي تنطلق من الأسر والقيد اللذين وقعت فيهما الكلمات والعبارات، وقد يعبر عنه في كثير من الأحيان أيضاً ذلك الذي نسميه الصمت!!!... ترى أيهما أجمل في التعبير عند لحظات الوداع و اللقاء؟...

فرح، كنت واثقاً من انك ستتغلبين على كل الظروف الصعبة التي مرت بك، أعرف جيداً التجربة القاسية التي مررت بها في العامين الماضيين، وأعرف أنك الآن أقوى من قبل وستلقين بكل ما مضى وراء ظهرك، تماماً كما فعلت بعد حادث وفاة نادر! وستعودين لمواصلة حياتك وأنت أكثر إصراراً على تحقيق طموحك! والوصول إلى مبتغاك في الحياة! إنه إيمانك العميق بها وجزء هام في سلوكك وتعاملك معها!.

فرح، ما أحلى على قلبي من ترديد اسمك في أعماقي. صفاء جوهرك! ونقاء سريرتك لم تتركا لي مجالاً لأحيد بقلبي ونظري عنك! لتستوطني فكري وخيالي. كانت

أسئلتك تدور في ذهني وكأنها عاصفة هائجة تحطم كل العوائق المحيطة بسفينتي دون أن تمسها بأضرار. صورتك أمامي في قاعة المحاضرات أقرب من كل الأشياء القريبة لبعضها!، أقرب من الروح إلى الجسد، أقرب من الخيال إلى الفكر. تمتزجين في تلك اللحظات بكل ذرة في كياني. تشدني ضحكتك، صمتك، ابتسامتك، انعكاسات التشاؤم على صفحة وجهك! على عينيك الجميلتين! على ملامح صورتك التي التصقت في أعماق قلبي ووجداني، لتكوني وحدك محطة البداية ونهاية الطريق!...

أيتها الجوهرة الغالية... أكتب إليك هذا وتدور في ذهني سوالف الأيام والساعات التي قضيناها معاً في حديقة البيت القديم! هل تذكريه؟ ذلك البيت الذي لا سبيل إلى نسيانه ونسيان أيامه الجميلة، والمليئة بكل ذكريات حبنا الكبير!...

إن ما يخفف على وطأة هذه الحياة المليئة بالمكابدة والمغالبة هو أنتِ! أعيش معك العمر الفائت! عمراً أبدياً، لأني لم أجد في هذا الكون حباً يماثل حبك لي. ولم أجد في نفسي حباً يماثل حبي لك!. لا أجد قيمة في هذه الحياة إلا لكِ، أنتِ حبيبتي وأنتِ ملاذي بعد الله وسكن نفسي وهدوء مهجتي وراحة قلبي وعظمة فكري وعلياء همتي!... أحبكِ كل الحب!...

سكون كهذا الليل أنا!...

وأحلام تطوف بخاطري... وأنتِ!

وخيالات!...

ووهم قد دنا!
وهدأة الفكر كالموت... كالقبر
كالضوء في مصباح ترنح! فانحنى!...
أجيبي!...
فأحشائي تذيب الروح تسعرها
وتصلي بطول الليل أحشائي
أجيبي!
فهذا الليل يدهمني
ويمحو كل أشلائي
أجيبي!
فقد تجمعي مزقاً!
تناثرت فرقاً!
في كل إرجاء...

أيتها الجوهرة الغالية: أتمنى لك ما أتمناه لنفسي وأكثر، فأنت تعيشين في قلبي وهو مرتع الأمنيات.))

لم تعلق سلى بعد أن أسمعتها فحوى الرسالة، ربما لأنها مثلي شعرت بخيبة أمل!. خيبة أمل لأن كل ما في الرسالة رغم حميميته وصدقه إلا أنها لم تضف شيئاً! كأنها لم تصل!. كل ما أراد هشام أن يصلني، هو أنه يعلم عني كل شيء، متابع لي ولأخباري، ويعرف كامل الظروف التي مررت بها، والألم الذي لاحقني منذ اختفائه المفاجئ!. لم يذكر عنوان، أو يبرر سبب غياب، أو يفتح أبواب أمل للقاء أو للحديث!...

ها أنت هشام تواصل التلذذ بقذفي في براثن الحيرة القاتلة، ها أنت تعاود ما فعلته منذ اختفاءك قبل خمسة

أعوام! ها أنت تفتح الجرح الذي أوشك على أن يندمل بقسوة، بل بوحشية لم تكن فيك يوماً ما!.

لن يسعفني الوقت لأنفذ ما طرأ على بالي حال انتهائي من قراءة الرسالة، لن يمكنني الوقت المتبقي من الذهاب لعدن للسؤال والبحث عنه! قد يكون هذا سبب إرسال رسالته لي!...

ربما سأبدأ من الجامعة في السؤال عنه، وربما سأستخدم مفكرتي الزرقاء وسأذهب للعنوان الذي كتبه لي!!! لكن للأسف لن يكفيني الوقت لأقوم بكل ذلك، كل ما أستطيعه الآن هو استخدام رقم التلفون! السؤال فقط، وربما الحديث أيضاً!، وربما ماذا! لا أعرف، لا أعرف، حقاً لا أعرف !.

أخرجت المذكرة من دفء جيب حقيبتي كتبت الرقم بخط كبير أمامي!... غريب!!! أربعة أرقام فقط والمستخدم الآن ستة أرقام! هل تعمد إسقاط رقمين وهو يكتب عنوانه ورقم تلفونه؟ هل شغلته بالحديث ساعتها ولم يكمل كتابتهما؟ هل؟ وهل؟ وهل... أسئلة كثيرة تدور في ذهني، لكن يجب أن لا أفكر بهذا السوء! هشام اكبر من أن يفعل ذلك! لقد كتب عنوانه ورقم تلفونه بمحض إرادته! لم اطلب منه ذلك، ليخفي حقيقة أو يسقط رقما!...

طرأت على بالي فجأة "أم زياد"! نعم أم زياد هي التي ستحل لغز الأربعة أرقام تلك!... لابد أن أتصل بها لأودعها قبل السفر. رغم اشتياقي لرؤيتها. أعلم أنها ستلح على بالعروج على عدن قبل سفري! لكن لا مجال

حتى لهذا مع أنها فكرة رائعة، ووداعها ووداع عدن أمر يغري بأن يكون من أول مهامي قبل السفر، وتستحق أن أفكر فيها بجدية!...

لم يعد المال عائقاً أمامي، يمكنني أن أذهب لعدن! وأودعها كما أريد! ملايين سامي التي وضعها في البنك بأسمى ستمكنني من أشياء كثيرة، لكنها جاءت للأسف في وقت لم أعد أرغب فيه بعمل أي شيء. كنت أحلم بالمال لأسافر، لألف حول العالم وأطوف بكل القارات. خط سير راودني طويلاً، يبدأ وينتهي بنقطة واحدة، دولة واحدة، فندق واحد! "قبرص" هي الدولة و"ليمسول" المدينة، وفندق" تشرشل" نقطة البداية والنهاية!...

أحلم بها منذ أن أسهب هشام في إحدى رسائله بالحديث عنها، عن شوارعها وناسها ومبانيها! عن مرافقة طيفي له طوال الرحلة! عن ذلك السائق الطيب الذي رافقه طيلة الرحلة وهو يحدثه عني، عن حبيبته التي سيعود إليها قريباً... كم يحمل الإنسان في داخله من تناقض يكون هو أول المستغربين منه! لم أعد أرغب حتى في هذا!...

كما توقعت، حدث تغيير لكل الأرقام القديمة، في منطقة الشيخ عثمان (زيدي يا بتي 38 قبل أي رقم قديم! أرقام الشيخ كلها أصبحت كذا!) رجتني بعد توضيحها لي الخالة أم زياد، أن لا أتأخر في زيارتها لو سمحت لي الظروف. أمطرتني بدعائها لي وتمنياتها لي بالخير والتوفيق والنجاح! أسمع كل ذلك منها غير قادرة على

إيقاف انهمار دموعي، وصلني دعاؤها، نقياً، شفافاً، عذباً، كقلبها تماماً، الخالة أم زياد!...

شعرت بالتردد! ترددت كما لم أفعل من قبل! قضيت ساعات طويلة أمام التلفون، أعد سيناريو محادثة! وأضع احتمالات لا حصر لها فيما لو رد على التلفون شخص آخر غير هشام! وأتوقع أسوأ ما في المحادثة وأن لا يكون المنزل هو منزل هشام! كل هذا وأنا غير قادرة على السيطرة على دقات قلبي أو التخفيف على وتيرة ارتعاش جسدي! والرجفة التي أصابت أعماقي...

بدا لي إلغاء الأمر أفضل بكثير مما يعتريني في هذه اللحظات!. حتى لو أقسمت أنني لن أتردد يوماً في السؤال عن كل ما يخص حياتي! لا داعي للحيرة، إنها فرصة لا تعوض حتى لو تقاذفتني بين أركانها المدمرة! لن أكرر أخطاء حياتي السابقة وتجاربي المؤلمة التي حصدتها طيلة الفترات الماضية!!!

أدرت قرص الهاتف، أضفت الرقمين كما ينبغي قبل الرقم الذي دوَّنه هشام على مفكرتي الزرقاء كما أخبرتني الخالة أم زياد! لم يجبني أحد!. حاولت مرة أخرى، ثانية وثالثة! لا مجيب! انتظرت حتى المساء، حاولت مجدداً، نفس النتيجة السابقة لا مجيب!...

غداً يوم آخر! كما يقولون، يجب أن لا أقطع الأمل! خط التلفون غير مقطوع مما يدل على وجود مستخدمين وينفي أن يكون الرقم قد تغير أو أن لا أحد في المنزل!...

كان يجب أن أضع هذه الاحتمالات التي تفيض تفاؤلا وأملا، لأني بحاجتها، لن أحتمل الحيرة مجدداً. لن أحتمل

التفكير المضني والمرهق لي ثانية! أنا بحاجة لأن استمر في حب هشام وتغذيته في أعماقي!. هكذا تقول رسالته وإن لم يكن صريحاً. تقول أنا موجود! أنا معك! أقرب إليك مما تتصورين! فقط استمري في حبي! دعيني أرافق آمالك وأحلامك! دعيني أكون المستقبل الذي تمضين باتجاهه! العالم الذي لا تودين مفارقته! القلب الذي لا يردد نبضه إلا اسمك والعين التي غاية آمالها وأمانيها رؤيتك!.

واصلت متابعة ما بدأته من تكرار لمحاولة الاتصال في جميع أوقات اليوم التي لا يمكن لأحد أن يفكر فيها في الاتصال! إلا في الحالات الطارئة مثلا: بعد منتصف الليل، قبل الفجر، الصباح الباكر، أوقات تناول الوجبات الغذائية! دون فائدة!.

الوقت الذي وصلت فيه إلى مرحلة اليأس والتفكير بشكل جدي في إمكانية السفر لعدن قبل ذهابي للقاهرة! حدثت المعجزة! ارتفعت سماعة التلفون لتجيب على مكالمتي بعد طول عذاب ومعاناة! أجابتني في الوقت الذي لم أكن معدة فيه أي كلام أو سؤال أو حتى استرجاع للسيناريو الذي أعددته مسبقا! في الوقت الذي كنت قد شارفت فيه على اليأس تماماً!...

- ألو!

- عفواً للإزعاج! هل هذا منزل الدكتور هشام؟

رد علىَّ صوت يفيض حناناً، نبرات هادئة تجيب على سؤالي:

- لا يا بتي!.

دارت بي الدنيا، هويت على الكرسي وقد أطبق سواد حالك على كل ما حولي، قبل أن تواصل...

- هذا بيت والده! أما بيته فهو في خور مكسر!...

- عفواً يا خالة! هل أنت والدته؟

- أيوه يا بتي، بكره جمعه بيزورني هو وعياله، لو تحبي اتصلي بكره، وقت الغداء!.

آآآه، كيف يمكن لعقلي أن يستوعب كلامها، الذي كان إجابة على استفساري ولا تقصد منه شيء، ووقعه كالصاعقة على رأسي، وبين ضرورة الرد عليها في الحال!

- شكرا يا خاله، مع السلامة!

- مع السلامة يا بتي، في رعاية الله.

هل ما سمعته للتو حقيقة! هل قالت أم هشام "عياله" وهل تقصد بها "أولاده" أم أن لها معنى أخر باللهجة العدنية، قد تعني أصدقاءه أو أشقاءه أو جيرانه، قد تعني أي شيء إلا أن يكون لهشام أولاد، و زوجه وبيت!...

غليان، بركان، انفجار، رجفة، أفقدتني السيطرة على جسدي!. انكمشت، تكورت، تدحرجت، سقطت، ارتطمت، صرخت، استنجدت، انكسرت، تبعثرت، تناثرت قطعا صغيرة، انفرطت من بعضها، أصغر وأصغر وأصغر، تلاشيت! ذرات هاربة، ضائعة. تبخرت، رذاذ يعلو ويعلو يتماهي في كل شيء وأصبح أنا لاشيء!

الغيرة، نار متأججة الآن في أعماقي! تلتهمني! لم أعد قادرة حتى على مقاومة الهروب منها وتلافيها! وضعت

كل الاحتمالات لاختفاء هشام! لم أفكر أو حتى يخطر على بالي احتمال كهذا! وجود حياة أخرى لهشام! عالم آخر! زوجة وأولاد! لماذا، لا أعرف!...

أتذكر أنني صرخت في وجه سلى مراراً وهي تحاول أن تسرب إلى عقلي بهدوء هذا الاحتمال! أكثر من مرة في حديثنا عن هشام وعن أسباب اختفائه! احتمال أن يكون في حياة هشام امرأة أخرى! وهو السبب الأكثر منطقية لاختفائه! من وجهة نظرها! ماذا لو علمت الآن صحة ظنونها المنطقية جداً، وأن هناك فعلاً زوجة وبيت وأولاد!...

أنا التي يجب أن أصرخ في وجهي! أن أقول لنفسي"لا!" و"مستحيل!" و"غير ممكن!" وكل الكلمات التي تدور حول هذا المعنى! هناك خطأ ما! هناك حلقة مفقودة لم أفهمها! هذا السلوك لا يمت بصلة لهشام الذي أعرف! لهشام الذي أحببت، لهشام الذي لن أكذب قلبي في هذه اللحظات وهو يقول: ليست هذه تصرفات هشام الذي تعرفينه جيداً!...

ربما بدأت أبحث عما يريحني دون أن اشعر، أضع احتمالات تنفي سماعي لكل ما كان! فأنا مثلاً لم أخبر المرأة التي ردت عليّ في التلفون على الاسم الثنائي أو حتى الثلاثي لهشام! ربما يكون تشابه أسماء! صدفة مزعجة! وجود شخص في ذلك البيت يدعى هشام! ليس هشام الذي أعني! وهي تقصد إنسانا آخر! لست أنا الذي تعنيه بردها! إنها حتى لم تسألني من أنت! وماذا تريدين منه! كأن مكالمتي متوقعة لديها! وعندها تعليمات

بإخباري في الوقت الذي يكون هشام متواجداً فيه بالمنزل!.

لكن هدوءها، ونبرة الحنان الطافحة من صوتها تقول غير ذلك! كأنها تعرفني! كأن شخصاً ما حدثها عني! عن احتمال مكالمتي! عن تسريب معلومات لي! عن تمهيد لمواجهة قد تحدث وقد لا تحدث أبداً!...

صوتها يقول أنها أم هشام، الإنسانة الجميلة، الوديعة، الرائعة التي لم يتوقف يوماً عن الحديث عنها وعن حبه العظيم لها، الإنسانة التي يشتاق إليها وهو أمامها، يحدثها ويحتضنها ويقبلها ويبكي كطفل على ركبتيها! تعرف ما يعتمل في أعماقه من النظر في عينيه، تمده بكل ما يحتاجه دون طلب! تعلم منها ما لم يتعلمه في كل كتب العالم! يغيب عنها طويلاً! ويعود إليها بشوق، وكأنه ميلاد جديد!... لم يشعر بالخجل يوماً، ودموعه تنهمر أمامي وحشرجات صوته المتتابعة تخنقه، ليصبح غير قادر عن الكلام عنها وهي بعيدة عنه!...

تمنيت رؤيتها واحتضانها وتقبيل يديها كما كان يفعل هشام! آه هشام، ما الذي لم تفعله بي وأي مفاجآت أخرى يخبئها لي القدر معك! أم أن هذا كان مبتغاك! كان من الممكن أن تستمر فيما بدأته دون رسالتك التي أججت نار الشوق في قلبي وفتحت أمامي أبواباً جديدة لاستمرار علاقتي بك! التي أراها في هذه اللحظة تحتضر، تموت ببطء وبهدوء كما بدأت، مع فارق أنني الآن أضع كلمات كثيرة بجانب اسمك، كلمات لم أتوقع في يوم من الأيام حتى مرورها على مخيلتي، كاذب، خائن ! لعوب!

أستمتع بقضاء فترة من الزمن يتسلى بمشاعري الصادقة وأملي في تكوين حياة أبدية معه! عديم المسئولية، تجاه وعوده نحوي وعدم الإيفاء بها!...

لمَ لا أقولها لنفسي وبصراحة، لمَ لا أواجه ذاتي ولو لمرة واحدة لأنظر لهشام من جانب آخر، جانب واقعي تدل عليه كل تصرفاته وأفعاله! حتى لو حدث شرخ في تلك المرآة التي أراه فيها شفافاً شديد الوضوح! حتى لو تشوهت تلك الصورة التي حفرتها له على جدار قلبي منذ أن صارحني بحبه! حتى لو دل كل ما فعله على أنه ليس عديم المسؤولية فحسب لكنه خائن وكاذب في كل ما قاله لي، الحقائق التي تنكشف لي تباعاً تقول ذلك! وتقول لكي أشعر بالراحة والهدوء ومواصلة حياتي بشكل طبيعي، يجب أن أتوقف عند هذا الحد في حب هشام، وفي الإخلاص بكل جوارحي طيلة هذه الفترة، لهذا الحب الذي لم أجني منه سوى الحيرة التي نهشت فيّ طيلة الفترة الماضية، ويجب علىَّ السير إلى الأمام، نعم إلى الأمام، وعدم الالتفات للخلف أبدا!...

آه، مجدداً رأسي يكاد ينفجر! كل ما أتمناه الآن هو أن أنام! منذ ثلاثة أيام وأنا أتخبط في صندوق مغلق دون أن أرى بصيص ضوء من حولي، لأسرب نفسي من خلاله، قبل أن تعود لي حواسي مجدداً!...

القاهرة

بدوت شاردة الذهن في الأيام التي سبقت سفري بشكل واضح!. لم استطع تحديد سببه المباشر في نفسي، ربما بسبب تفكيري المستمر في ما تخبئه لي تلك الفترة! وربما بسبب تأثري الشديد بردة فعل خبر سفري السريع والمفاجئ من أهلي وصديقاتي وأقاربي.

بدوت كالبلهاء وأنا غير قادرة على السيطرة على دموعي، التي كانت تنهمر نهاية كل حفلة أو لقاء وداع. شعوري بالإمتنان من الجميع، من انهمارهم على منزلي لتوديعي والدعاء لي، جعلني أشعر كم سأفتقد هذا المشاعر الصادقة! وكم سأشتاق لقلوب دافقة بالحب، نقية، لا تعرف الحقد والكره كهذه! أنا التي لا تعرف كيف تسافر حتى لو ابتعدت عن الجميع آلاف الأميال فهم في قلبي أينما حللت، وكيفما كنت!.

صدفة لم تكن تعني أحداً غيري من ركاب الطائرة المتجهة إلى القاهرة. صدفة رتبها لي القدر ولم اسع لتغيير أو تأجيل وقوعها! صدفة أن أغادر صنعاء في نفس يوم عيد ميلادي! 17 ديسمبر !... لتقديم أوراقي لجامعة القاهرة بعد ثلاثة أيام من هذا الموعد. ومن بين كل التهاني التي وصلتني مسبقاً، من شقيقاتي، ومن صديقاتي، لم تفرحني إلا تهنئة أبي وهو يودعني جاهداً أن يخفي دموعه، هامساً في أذني بحنان صوته بكل عبارات التنبيه والنصح التي سأحتاجها للمرحلة القادمة!...

الصدفة الأخرى التي لم تكن تعني أحد أيضاً، هي جلوسي في نفس المقعد رقم سبعة وهو ذاته المقعد الذي جلست عليه وأنا متجهة في زيارتي الأولى للقاهرة، ولم أتعدى الثالثة عشر من عمري بعد برفقة شقيقتي سلى ووالدي!...

بالتأكيد لا أملك ذاكرة ذهبية لحفظ كل هذه التفاصيل الصغيرة، لكنها كانت تهمني بشكل خاص، ويهمني

كتابتها في مفكرتي الزرقاء الخاصة بتلك الفترة. أخرجتها قبل أيام من سفري وشغلتني طريقة كتابتها وتفاصيلها الدقيقة جداً لوصف الخمسة عشر يوماً التي قضيتها فيها!... مع فارق أنني الآن وحدي دون رفقة أبي وسلى...

وحدي لأول مرة في حياتي! كم يحمل هذا الشعور في طياته من تناقض. يشعرك بالمسؤولية ليس تجاه نفسك فقط بل تجاه كل من يهمك أمرهم! ترغب أن تكون أنت كما أنت! وأنت كما يريدونك أن تكون!. ترغب أن لا تخيب أملك في نفسك، ولا تخيب أملهم فيك! وجل ما تخشاه، لحظات ضعف وزلات لا يمكنك مجابهتها لتصمد أمام تحديها لك بمغرياتها!...

أواجه نفسي بهذا مسبقاً لأني لم أكن يوماً غير ذلك الطائر المستقر في عشه والمعتمد على تلقي كل شيء من الخارج! يفكر كل يوم في الحرية وتخنقه مشاعر الخوف عليه! تقيده وتشل حركته!. هو ذاته الطائر الذي ينعم الآن بالحرية، لكن عليه حماية نفسه ليس من هجوم الصقر المباغت، الذي لا تخفي مخالبه ما يدور في أعماقه من شر ولكن أيضاً من الطيور التي تشبهه تماماً!...

أرقب من نافذة الطائرة المناظر التي تعلوها ببطء، قبل أن تختفي من أمامي، ويطغى بياض السحب وزرقة السماء على ما سواهما. تشعر وجبال اليمن العارية تتلاشى من أمام ناظريك أنك تغادر أجمل وأروع وأنقى بقاع الأرض، وتتساءل لماذا لا يحبها أهلها كما يجب؟

كم هي بحاجة لهذا الحب! الحب الصادق الذي لا حدود لعطائه لها، ولا حدود لتفانيه في خدمتها!...

تلا إقلاع الطائرة وبعد ما يقارب الساعة تنبيه تهنئة احتفال من كابتن وطاقم الطائرة بعروسين متجهين للقاهرة لقضاء شهر العسل، في جو تصفيق وعبارات مباركة لهما من الركاب عند تقديم كأسين من العصير، وقيامهما بتقطيع قالب من الكيك.

بعد تهنئة العروسين بدقائق وقبل دخولي في طقوس السفر، من سماع الموسيقى والقراءة فيما أعددته لتلك الساعات فيما لو أصابني الملل أو عدم الرغبة في النوم، أفاجأ (يبدو أنها رحلة المفاجآت!...) بتهنئة أخرى لم أكن أتوقعها أو حتى تخطر لي على بال!...

تقدمت المضيفة الجوية باتجاهي وهي مبتسمة وقد أشعلت شمعة في وسط قالب كيك، الغابة السوداء **black forest** المغطى بالشوكلاتة! وهي تقول: "عيد ميلاد سعيد" ليعلو التصفيق في أرجاء الطائرة كما حدث مع العروسين وكأنهم يعرفونني جميعاً. بالطبع شكرتها ورجوتها أن تشكر كابتن الطائرة، لكن أيضاً كان يجب عليّ أن اسأل عن كيفية تسريب تلك المعلومة، الخاصة جداً لهم! لم تنطق بكلمة لكنها ابتسمت وأشارت للمقعد الذي خلفي قبل أن تغادر!.

التفت والفضول يكاد يقتلني لمعرفة السبب في هذه المفاجأة! في هذا الجزء البسيط من الدقيقة أثناء التفاتي للخلف، تمنيت أن تحدث معجزة، أو يحدث شيء يشبه الأفلام الهندية وحلاوة لا معقوليتها في كثير من الأحيان،

ويكون صاحب هذه المفاجأة الرائعة هو هشام، الذي سيرجو السيدة إلى جواري باستبدال مقعده ليهنئني وجها لوجه، ليصافحني وعيناه تفضحان جام شوقه لي ولرؤيتي!.

أدرت وجهي للخلف وأنا أتمتم تعويذات أمي وأمسك ب "القحيطة"[21] التي وضعتها بيدها في جيب صدري المختفي، طالبة منى عدم نزعها أبداً!. مسكينة أمي ربما نسيت أنها أعطتني شيئاً مماثلاً ليلة زفافي وهي أكيدة أن محتويات "القحيطة" من حبة البركة والريحان والشذاب المجفف إضافة إلى الملح، سيزيل عني الحسد والعين الحاقدة التي لا تتمنى لي الخير، وستجلب لي السعادة بفضل قراءتها لكل ما حفظته من القرآن عليها، وهي تعدها وتخيط على محتوياها في قماش أحمر جميل، وقد اختارت لها شكل مثلث متساوي الأضلاع!.

مسكينة أمي لأن ما حدث لي كان كافياً أن يقنعها بعدم تكرار التجربة، ومع ذلك أخذتها منها وأنا احتضنها وأقبل يديها وركبتيها عند وداعي لها! وها أنا أضعها في حمالة الصدر تماماً بين نهديّ، ها أنا امسك بها وأتمتم بتعويذات لا أعرف كيف جاءت إلى لساني ومتى

قطعة قماش يوضع بداخلها مواد يعتقد أنها تجلب الحظ وتبعد الحسد كالملح والحبة السوداء، يختلف حجمها حسب مكان وضعها فهي صغيرة إذا وضعت في أحد جيوب الثياب المختبئة في الصدر، وعلى شكل مثلث متوسط الحجم إذا علقت في احد أركان المنزل.

حفظتها من أمي، أو من أي كتاب قراءتها، أو أي فلم شاهدتها!.

للأسف لم تحدث المعجزة! ولم يكن هشام الذي يقبع في المقعد الخلفي! كان – مرة أخرى – حازم، طالبي النجيب، قفز من مكانه وأصبح أمامي في اقل من ثوان مصافحاً لي ومهنئاً بحرارة شديدة، عبرت عنها ابتسامته العريضة وطول مصافحته ليدي حتى سحبتها منه بهدوء وأنا اشكره!... وكما تمنيت في خيالي الخطوة التالية من هشام، فعلها عوضاً عنه حازم، وترجى السيدة إلى جواري وأقنعها باستبدال المقاعد لأنه بحاجة لاستشارة مُدرسته في أشياء مصيرية!.

يبدو أن لا مجال لتمتعي بطقوس الرحلة. لم يسكت حازم طيلة ساعاتها الثلاث، بدأها بروعة تلك الصدفة التي جمعتنا في رحلة واحدة. مروراً بامتنانه بمعاملتي الجميلة له في الكلية، مع أنها كانت مثل معاملتي لجميع الطلبة، و بالنصائح التي لم ابخل عليه بها في سنته الأولى وينعم الآن بحصوله على المركز الأول، ووظيفته معيداً بالقسم تمت بشكل اتوماتيكي كما تحدد قوانين الكلية، وانتهاء بهدف زيارته للقاهرة، للسياحة أولا واستقراء مدى إمكانية مواصلة دراسته العليا بعد عامين فيها!...

اقتصر كلامي وردودي على حديث حازم بردود مقتضبة جداً، حرصاً منى على عدم تفسيره لكلامي بشكل خاطئ يتمناه ويبحث عنه. بعد أن أكدت لي تصرفاته الأخيرة في الكلية وطريقة تعبيره في الاحتفال

بيوم ميلادي اليوم، أنه يكن لي شيئاً آخر، وأنه في الطريق إلى تجاوز تلك المساحة التي أعطيتها للطلبة المميزين للتعبير عن أرائهم معي بمنتهى الثقة والحرية! تجاهلت تماماً تلميحات كلامه وهربت ما استطعت من نظراته الغير عادية تجاهي و التي كان يتلصص فيها بين الحين والآخر! خاصة أن المسافة القريبة بين كرسينا سمحت له بذلك وبمنتهى الحرية!...

لم أكن على استعداد أن أكرر قصتي مع هشام حتى لو كانت بشكل مختلف! مُدرسة وتلميذ! بدلاً من مُدرس وتلميذة!. لم أكن على استعداد أن أكون المُدرسة التي يقع في غرامها التلميذ، ليس لأن العلاقة بين المدرسة والتلميذ في رواية الكاتبة النمساوية الرائعة "الفريدة يلينك" "عازفة البيانو" والتي حصلت بفضلها على جائزة نوبل للعام **2004**، لم تنل إعجابي لاعتبارات فارق السن بين بطلة الرواية "اريك" وتلميذها "كلمر" الأمر الذي جعلها تفرض علاقتها العاطفية به كما تريد، والجنسية على وجه الخصوص، التي بدت غير طبيعية واقرب إلى أفلام "البورنوجرافيا" باستخدام وسائل غريبة ومتعددة للوصول إلى اللذة المطلوبة في تلك العلاقة!... إضافة إلى دورها كمدرسة متسلطة وممتلئة بالعقد فرضتها عليها علاقتها مع أمها الشديدة في قوانين تربيتها، وتأخرها في الزواج...

لكن لأني لم اعد قادرة على المغامرة في خوض غمار تجربة جديدة وجراحي لم تندمل بعد!. ارغب في الهدوء والاستقرار. وعدم التفكير إلا باتجاه واحد ووحيد وهو

دراستي والابتعاد عن كل شيء يمكن أن يسبب لي أدنى قلق أو انشغال!.

بالرغم من كل ذلك، بدوت متناقضة جداً وأنا أخبر حازم أين ستكون إقامتي في القاهرة! حال سؤاله لي، وعن استقبال صديقتي هناء لي في شقتها لحين البحث عن سكن مناسب لي!. كان على أن أتريث قليلاً حتى لا يفكر في التواصل معي، وأكون بذلك قد وضعت حدا لكل تصرفاته! لكني لم أفعل ولا أعلم لماذا! وهذا جعله يمد لي بورقة صغيرة كُتب عليها عنوانه وفترة بقائه في القاهرة. شكرته بالتأكيد، وقبل أن يفكر في فتح موضوع جديد أدرت راسي للنافذة أرقب القاهرة منها وأمتع عيني بجمالها وجمال نيلها من أعلى! آه كم أعشق هذا النيل الخالد، النيل العظيم!...

إحترم حازم سكوتي ورغبتي في التأمل على مضض وأنا على يقين أنه كان في انتظار سؤالي له عن كيفية معرفته يوم ميلادي! لأنه ليس بالأمر السهل. لكني لم أفعل لأن معرفتي من عدمها لن تغير شيئاً في الموضوع الذي يسعى إليه وأراد أن يلفت نظري!...

مشاعر متناقضة انتابتني وحازم يصر على ملاحقتي بنظراته، نظرات أربكتني رغم تجاهلي لها! وأسئلة كثيرة داهمتني دون سابق إنذار! لم لا؟ لم لا أعيش هذه القصة التي تبدو لي الآن غريبة! لكنها غير مستحيلة! وتقول أنني ما زلت مرغوبة ومثيرة للاهتمام رغم تجربتي المريرة في الزواج! وهناك من يود مصارحتي بذلك وتصرفاته تدل على ذلك! دون أن يهتم كوني أرملة

أولاً! وكوني أكبره في السن! عائقان أحلاهما مُر بالنسبة لأي رجل يفكر بالزواج! فيما لو قرر وضع كلام الناس من حوله وكلام المجتمع جانباً! واقتنع بالمرأة التي يحب! لكن هذا لا يحدث إلا نادراً! وهذا النادر يحدث الآن مع حازم، فتمهيدات كلامه ونظراته واهتمامه باحتفال عيد ميلادي وبحثه لمعرفة اليوم أولا تدل على ذلك!...

ربما ما كان يهمني، ويشغل بالي فيما لو كان هناك قصة حب بين مُدرسة وتلميذ هو تقمص شخصية هشام، معرفة شعوره وهو يحب طالبته! معرفة تفكيره نحوها وطريقة عيشه معها! قد أجد في هذا كله مبرراً لغيابه وربما خيانته!... ها أنا أعود لهشام من جديد رغم الوعد الذي قطعته على نفسي بعدم التفكير فيه مطلقاً!...

ودعت حازم وهو يعدني بالتواصل طيلة فترة بقائه في القاهرة وأبدى استعداده لمساعدتي وخدمتي في كل ما أطلب.

قبل التوجه لمنزل صديقتي هناء حال وصولي القاهرة، كان علىّ زيارة أهم ما فيها، إلقاء التحية والسلام عليه! مصافحته! الحديث معه! إلقاء كل ما يثقل كاهلي حمله، من عذاب السنين الماضية وآلمها في جوفه! لأبدأ معه للتو صفحة بيضاء نقية، سأخط فيها ما أشاء بطهر ماءه، وصدق إنصاته، وتجلى ساعات الوقوف في حضرة بهائه، وتلألأ صفاء وجه، إنه النيل العظيم، الذي استقبل دموعي المتساقطة بحب قبل أن يتوحد معها ويمنحني القوة التي أريد!...

لم تتغير صديقتي هناء كثيراً، كما هي، محتفظة برشاقتها رغم قامتها القصيرة. بسببها كانت ترتدي الأحذية العالية، وبسبب الأحذية العالية وحرصها على أن تبدو أكبر من سنها، تزوجت في سن مبكر، وطُلقت أيضاً في سن مبكر!. لم تسمع نصائح صديقاتها المقربات إليها، بالاهتمام بالدراسة واستكمال المرحلة الثانوية على الأقل، ورفض أو حتى تأجيل الزواج من ابن عمها الذي أصر على إتمام الزواج حال انتهائها من المرحلة الإعدادية، لكنها لم تقبل ولم تسمع كلامنا!...

من يراها الآن وهي تعد لرسالة الماجستير في القانون الدولي، واثقة من نفسها، تعيش بمفردها في القاهرة، لا يصدق أنها مرت بكل تلك الظروف الصعبة وتجاوزتها بحكمة عندما طلبت الطلاق بهدوء. رفضت أن تكون زوجة أولى انتهت مدة صلاحيتها! وعليها الترحيب باستقبال زوجة جديدة لا يميزها عنها شيء...

رفضت أن يكون زواجها من ابن عمها الواجب المفروض عليه حتى لا يتزوجها أي غريب عن العائلة! وتكون الزوجة الجديدة هي المتعة والحياة التي يبحث عنها! أصرت على موقفها في طلب الطلاق، استشاط زوجها غضباً أفضى إلى حرمانها من رؤية ابنتها الوحيدة! ورغم أن الأمر لم يكن سهلاً عليها في البداية إلا إنها رضخت للواقع مكتفية برؤية ابنتها في الأجازات!.

بعد عناقنا الطويل، وعدم توقفنا عن الكلام لفترة طويلة بدأت هناء تنظر للساعة، وهي تقول أن هناك

مفاجأة في انتظاري. وقبل أن تنتهي من جملتها كان جرس الهاتف يرن! ليصلني صوت سلى الملائكي وهي تغني بصوتها العذب الهادئ "سنة حلوة يا فرح، يا فرح، يا فرح!..." كم هي حانية تلك اللحظات التي انهمرت فيها دموعنا واختنقت العبارات في حناجرنا ونحن نحيي التفاصيل الصغيرة لذكرياتنا في أيام عمرنا الجميل معاً. هنا في القاهرة في رحلة نحتفظ لها في أعماق قلبينا بفسحة ضوء لن يخبو بريقها أبداً!.

المفاجأة الأكثر روعة من مكالمتها هي إعلامي بزيارتها للقاهرة برفقة زوجها لحضور مؤتمر علمي، وولديها خلال إجازة عيد الميلاد ورأس السنة في فرنسا بعد أقل من أسبوعين!.

أصرت هناء على مكوثي معها في شقتها وعدم البحث عن شقة أخرى لأسكن فيها. لم أكن لأرفض عرضاً مغرياً وذهبياً كهذا، فشقتها الواقعة في منطقة الدقي وتطل صالتها الرئيسية على نهر النيل مباشرة، اشتراها والدها أثناء دراسته في القاهرة في بداية الستينات، ساعده على ذلك الوضع المادي الممتاز لعائلته، وهي الفرصة التي لم يضعها معظم اليمنيين ميسوري الحال في تلك الفترة، وتملكوا شققا في "أم الدنيا! مصر" هذا بالإضافة إلى قربها من "جامعة القاهرة" التي سجلت فيها لإعداد أطروحة الدكتوراه، وكنت اجهل عنها الكثير، وعن عراقة تاريخها المضيء والمشرق ليس في القاهرة وحدها، بل وفي مقدرتها وتعاونها لاستقبال البعثات التعليمية من مختلف أنحاء العالم، منذ تأسيسها

أوائل القرن العشرين على أيدي رواد حركة التنوير والفكر الاجتماعي، محمد عبده، مصطفى كامل، محمد فريد، قاسم أمين وسعد زغلول... ومن ثم تدريس العلوم الحديثة فيها على أيدي مفكرين عظام من مبعوثيها لأوربا للحصول على درجة الدكتوراه مثل، طه حسين، منصور فهمي وأحمد ضيف... حيث شكلت كلية الآداب نواة لهذه الجامعة منذ العام **1923** والتي أضيفت إليها بعد ذلك الكليات العلمية إلى أن تم تعديل اسم الجامعة من "جامعة فؤاد الأول" إلى "جامعة القاهرة" في العام **1953** بعد ثورة يوليو...

ما أذهلني حقاً انه لم يمر شهر على وصولي وقد شهدت كما هائلاً من النشاطات العلمية المختلفة، ندوات متخصصة، نقاشات عامة مختلفة المواضيع، مؤتمرات دولية ومحلية، ورش عمل وتدريب!... خلية دائمة الحركة لا تكل ولا تمل عن كل ما يرفع بالمستوى العلمي للجامعة ويفيد طلابها بالمقام الأول!...

ذلك الشتاء

يهبني الشتاء في أعطاف برده ما يمدني بالدفء والسعادة طوال فترة بقائه كل عام. لا تصيبني الكآبة التي تحل على رؤوس الأغلبية فيه! لا أتمنى انقضاء أيامه سريعاً بل أذوب عشقاً في جليدها مرات ومرات! أتوحد مع الشاي الذي يندلق إلى جوفي طيلة ساعات النهار، وانصهر في أعطاف الغطاء الوثير الذي يغطي جسدي في ساعات الليل!...

ليست مشاعري تلك طارئة أو مؤقتة لكنها دائمة في تكويني منذ زمن طويل! منذ أن كان الدخان المتصاعد من فمي يثير فضولي لمعرفة سببه في برد صنعاء القارس وأنا طفلة! منذ أن كانت رؤية الثلج المتساقط في مدينة دمشق وبيروت، تحرك في داخلي لحظات شجن وحزن أستلذ بها وبقرصنتها على لحظات تأملي وصفاء ذهني من المعكرات! منذ أن كان المعطف الكحلي لهشام، الذي دثرني به ذات مساء في حديقة منزله، يسرب إلى مسامي دفء قلبه وحنان مشاعره وصدق إحساسه!. منذ أن أصبح صوت فيروز يبكيني بعد غيابه وهى تشدو بأغنيتها "حبو بعض!" ولا يفارق لساني ترديدها حتى في منامي: (بدية القصة تحت الشتي، بأول شتي حبو بعضن، وخلصت القصة بتاني شتي، تحت الشتي تركوا بعضن!...)

وهبني شتاء القاهرة هذه المرة، سلى! أوفت بوعدها وجاءت مع زوجها وطفليها، لقضاء إجازة الشتاء معي. استعدنا تفاصيل رحلتنا السابقة في طفولتنا. لم نكن نعلم أن تفاصيلها محفورة في ذاكرتنا إلى هذا الحد إلا ونحن نستعيدها في كل الأماكن التي مررنا بها!...

أمين، زوج سلى الذي يتخصص في أمراض الكلى في جامعة باريس-6 (بيير وماري كوري)، المرض الذي يموت نتيجته أعداد كبيرة في اليمن، إما بسبب عدم توفر الأدوية وارتفاع أسعارها، أو بسبب انعدام الأجهزة الخاصة بغسيل الكلى في معظم المستشفيات الحكومية، وإن وجدت فهي شحيحة جداً ولا تكفي الكم الهائل من

المرضى الذين يقفون في الطابور الطويل! لا حول لهم ولا قوة، غير قادرين على السفر كما يفعل أصحاب المال والنفوذ عندما يصابون بأنفلونزا بسيطة، وغير قادرين أيضاً حتى على الذهاب لمستشفيات الجيش التي تتمتع بنصيب الأسد من المعدات الطبية، حتى لو لم يتم تشغيلها بسبب عدم وجود الكفاءات القادرة على ذلك، لحين الاستعانة بخبرات أجنبية!.

يقسم أمين أن والده توفى بين يديه، بسبب الفشل الكلوي، وتأخر موعد جلسة الغسيل لساعات قضاها ينتظر دوره! وأن الجهاز الذي تبرعت به أحدى الدول المتقدمة لليمن. كان ينقصه قطعة غيار بسيطة، يمكن طلبها حتى بالبريد وتركيبها دون الحاجة للاستعانة بطلب خبير في الأجهزة الطبية، تسبب تأخره في موت عشرات المرضى الذين تأخر موعد غسيل الكلى لديهم وأصيبوا بالتسمم والموت الأكيد!.

تسقط من عيني أمين دمعه حاول جاهداً إخفاءها وهو يربت على كتف ابنه عبدا لله الذي اسماه على اسم والده ليتذكره دائماً، وأصر على التخصص الطبي الذي يشعر أنه سيفيد به مرضى آخرين حتى لو فقد والده بتلك الطريقة البشعة! يحلم باليوم الذي يتمكن فيه من النجاح في جراحة زراعة الكلى، والقيام بها مجانا للأمراض في اليمن!. استحالة تحقيق حلم كهذا لا يمنع تمني تحقيقه ولو في الخيال كما قال!...

يندهش أمين عندما يرانا أنا وسلى فجأة وقد غرقنا في نوبة ضحك هستيري!. تذكرنا فيها موقف مررنا به، أو

منظر مر علينا، أو تعليق لم نستطع منع أنفسنا من التلفظ به معاً وفي ذات اللحظة، حرك في داخلنا كل هذا الكم الهائل من الضحك! ويندهش أكثر وهو يجدنا نغرق في الصمت أحياناً وفي البكاء أحياناً أخرى لذات المواقف ونحن نتذكر ثالثنا الغائب، والدنا الذي لن يغيب عن قلوبنا أبداً، و كنا ندعو له بدوام الصحة والعافية وطول العمر! في كل مرة تداهمنا حلاوة روحه وخفة دمه وروعة تعامله في السفر!.

أحضرت معها سلى صور تلك الرحلة القديمة بتاريخها، والمتجددة في أعماقنا! ونحن في كل مكان في القاهرة! في أهرمات الجيزة، عندما أخذ ثلاثتنا الوضع الهرمي المتدرج لأخذ الصورة! وكأننا ننافس وضع الأهرامات الخالدة! صورة في جبل المقطم والقاهرة وهي في كامل زينتها وأضواء ليلها البهي على النفس والممتع للعين خلفنا! صور في الأماكن الروحية المقدسة التي تمدك بالراحة والطمأنينة: مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه، مسجد الأزهر، مسجد السيدة زينب والسيدة عائشة! صور في قلعة محمد على وتاريخيتها التي تشعرك وأنت تطوف بأرجائها بعظمة ذلك الرجل الذي بنى مصر الحديثة وهو لم يتلق أي نوع من التعليم، لكن حبه للعلم والتعليم جعله يفعل الكثير ليدخل التاريخ ويصبح من العظماء!...

ما حدث في زيارتنا للمتحف المصري وبحثنا معاً عن التابوت المذهب الممزوج باللون الفيروزي "لعروسة النيل" (حيث يروى أن المصريين القدماء واحتفالاً

بالخير الأسمر، خصب الطمي عند الفيضان من حبيبات تحملها مياه النيل قادمة من الحبشة، كانوا يلقون بعروس النيل ابتهاجا بقدوم الفيضان الذي يعني لهم الرخاء في سنة قادمة...) وسرد أدق تفاصيل تلك الزيارة لطفليها رغم صغر سنهما واستقبالهم لكلامنا بالضحك! إلا أننا لم نهتم، إنها روعة الذكريات والرغبة الجامحة لكلتينا في استعراض قدراتها على التذكر...

أعتذر أمين لسلى وولديه عن عدم قدرته في تنفيذ وعده لهم بزيارة الإسكندرية لضرورة عودته لباريس مباشرة بعد انتهاء المؤتمر!... لذلك شعرنا برغبة جامحة أنا وسلى من تكرار ترديد ذكريات الإسكندرية في زيارتنا السابقة، البحر، السباحة اللذيذة فيه حتى احمرت أجسادنا الغضة من تأثير الشمس، ترديد اسم الفندق الذي سكنا فيه وروعة تلك الغرفة التي كانت مطلة مباشرة على البحر، نومنا في الشرفة حتى لا يفوتنا منظر شروق وغروب الشمس منها، زيارتنا المتعددة لمنتزه الملك فاروق، والتجول بعربة أحد الأحصنة في أنحائها الجميلة من "المعمورة" إلى "الأنفوشي" طرفاً الإسكندرية الأكثر شهرة!...

جددت زيارة سلى في أعماقي أشياء كثيرة شارفت على الذبول. نسيت فيها ألم السنين الماضية وعذابها. تدفق في شراييني دم جديد خالٍ من الإحباطات والمشاكل التي لن اسمح لها أن تكون سبباً في منعي من مواصلة الطريق الذي أسلكه...

آه سلى، كم أتمنى أن لا أودعك أبداً! كم أتمنى أن نظل معاً إلى الأبد! آه ثانياً وثالثاً ومدى الحياة، الحياة التي يجب أن نرضى بها وبتقلباتها سواء كانت في صالحنا أو ضدنا!...

أخذت سلى مني وعداً وأنا بين أحضانها مودعة لها ودموعي تنهمر وغير قادرة على إيقافها! بمراسلتها مهما كانت الظروف وعدم ترك صغيرة أو كبيرة أرغب في التحدث بها، إلا وكتبتها!، لقد ألغى الكمبيوتر الآن كل المسافات وستصلني رسالتها أو رسالتي لها في ذات اللحظة، وعدتها لأني كنت في أمَّس الحاجة ربما أكثر منها لهذا الوعد!.

رغم كل ذلك، الفترة التي تلت رحيل سلى كانت من أصعب الفترات التي مريت بها في القاهرة. شعور فظيع بالوحدة وشوق جارف لصنعاء ولكل شيء فيها، أهلها، مبانيها، شوارعها، هواءها، ترابها!... أتذكر يوم الجمعة من كل أسبوع، والتفافنا حول مائدة الغداء في منزل أبي مع أشقائي وأبنائهم الذين يزدادون عاماً بعد عام! أتذكر انتظاري لاستيقاظ أبي من قيلولته بعد الغداء والجلوس أمامه والحديث معه حتى أذان المغرب! أتذكر حديثنا وضحكنا وغناءنا ورقصنا أنا وشقيقاتي والسخرية من أزواجنا وأشقائنا المحرومين من هذا كله والقابعين في أركان الديوان[22] يتناولون القات مبحلقين عيونهم في اللا

[22] الحجرة المخصصة لتناول القات فيها.

شيء، ترتفع أصواتهم بين الحين والآخر مطالبين بالهدوء حتى يستمتعوا بمذاق القات!...

لو يعلم هؤلاء كم من وقت وجهد وصحة يهدرونها لشعروا بالحزن الشديد على أنفسهم. بحسبة بسيطة جداً يمكن توفير مبلغ سنوي جيد عوضاً عن القات! يقيهم شر الزمن إذا ما كانوا من أنصار عدم مغادرة البلاد إلا للتداوي كحال معظم اليمنيين. وربما سيحفز على ثقافة الاستمتاع بالحياة، عن طريق السفر والاختلاط مع الآخر، والتعرف على المكان وسحره المحرض دائما على اكتشافه والتماهي في قيمته التي كانت! وتخيل ماضيه وساكنيه، والعيش معهم ولو للحظات ممتعة رائعة جلية!... وتجاوز هذه الحلقة المفرغة، حلقة الدوران اللانهائي حول القات!...

أتذكر أيضاً صديقاتي، حوارات ومرح آخر الأسبوع لنسيان تعبه والاستعداد لبداية أسبوع جديد! مليء بالنشاط والحيوية! يعصف بي كل ذلك وأنا أحكيه لهناء التي كانت منصتة جيدة جداً! تدحرج لي كلمات الصبر وضرورة تحمل هذه المتاعب لأن الحياة ليست سهلة كما تقول!...

عندما تحول الأمر إلى إبداء رغبة مني في العودة والتوقف عن مواصلة الدراسة التي بدأتها بحماس وبدأت في الخطوات الجادة منها. أسمعتني هناء كلاماً لم أتوقعه منها، ولم أفكر فيه من قبل، ومع ذلك أنا مدينة لها بجميل تلك الخطوة القاسية! فلولاها ما استطعت مواصلة ما كنت بدأته!... ربما منذ ذلك الحين قررت أن لا أهرب

أبداً من أي موقف يتطلب المواجهة والصبر والقدرة على مواجهة الحياة حتى لو وحيدة!.

ما جعلني أفكر في كلام هناء هو دقته! وقدرتها على تحليله رغم أنها لم تكن حاضرة الوقائع، لكني حكيته لها في ليلة واحدة. سردت عليها تفاصيل حياتي منذ غادرتنا وقررت الاستقرار ومواصلة دراستها في القاهرة!...

فعلاً! كان لديها كامل الحق فيما قالته! فأنا في كل كارثة كانت تحط على رأسي، أنتظر من ينبهني إلى عدم الاستسلام وإلى ضرورة المواجهة للاستمرار! والبحث عمن يقف إلى جواري بقوة أكثر مني! استنتجت و ربطت حادثة وفاة نادر بوجود هشام إلى جواري، وتشجيعي في الحفاظ على مستواي الدراسي!... ربطت أيضاً استسلامي لليأس بعد وفاة سامي، لولا إرسال سلى للظرف الطبي لسامي الذي أوضح لي الحقيقة وأخرجني من حالة الإكتئاب التي لازمتني في تلك الفترة!... من غير الممكن أن لا أكون أنا السبب في مواجهة متاعب الحياة ومشاكلها، انتظار الحلول من الآخرين يعني الضعف والاستسلام! لابد أن أواجه كل هذا بالتحدي والثقة بالنفس!.

لديها كامل الحق هناء فيما قالته حتى هذا الموقف هي السبب في إخراجي منه وعودة صوابي الذي كدت أفقده! وافقد طموحي وحماسي للمواصلة في لحظة ضعف، لذلك سأظل مدينة لها بإنقاذي من براثن التردد مدى الحياة!.

ما قبل أخيرة

مرت الأعوام الثلاثة المخصصة لإعداد أطروحة الدكتوراه بشكل سريع لم أتوقعه!. انتظمتْ خلال تلك الفترة زياراتي لصنعاء في الإجازات الصيفية، تكون سلى أيضاً قد سبقتني قادمة من باريس، لنقضي معا شهرين من أروع ما يكون! مع بقية أفراد العائلة!.

بعد دخولي أجواء العمل في صلب موضوع الأطروحة المكرّسة لدراسة جذور الفلسفة الإغريقية والإشكاليات الفكرية التأسيسية لها، عشتُ بتوحّد اللحظات الجنينية لبدء تلك الفلسفة. أسرَتْني قصتها الممتعة منذ ظهور أول الفلاسفة "طاليس" في القرن السابع قبل الميلاد في مدينة "ملطية" أحدى مدن جزيرة "أيونية" في بلاد اليونان. استمتعتُ بالقراءة فيها وفي تشعباتها المختلفة، أصبحت أقضي معظم الوقت في القراءة والكتابة، لم أضيع دقيقة واحدة دون عمل، دون بحث، دون استفادة! لابد لي من الخروج بها، طيلة الثلاثة أعوام، حتى كتابة الأطروحة والانتهاء منها.

متعة القراءة في الفلسفة أنك تقرأ دون ملل، وكلما قرأت شعرت أنك بحاجة إلى المزيد، تجرك الفلسفة اليونانية القديمة إلى الفلسفة الحديثة، وتجرك الحديثة إلى ما بعدها، تبحث في تسلسل نظرياتها ويشدك نقدها إلى عالم تفكير خاص بك! واتجاه تنقاد إليه وتقتنع به أكثر من غيره!... وهكذا، عالم تشعر بضآلة معلوماتك أمام بحره الوافر! مهما قرأت.

تشدني أكثر القراءة دائما باتجاه العظماء الثلاثة "سقراط، أفلاطون، أرسطو" والقضايا الجوهرية والمصيرية التي آمنوا بها وعلموها لتلاميذهم! دافعوا عنها طيلة حياتهم لتخلد بعد مماتهم!...

سقراط الذي انطلق من حكمته المنحوتة على باب معبد "دلفي" في اليونان: "أعرف نفسك" المعبد الشهير الذي سمي باسم عرافة المعبد أو كاهنته **The Oracle of Delfi**، وأطلق أيضاً على النصب الذي كان على شكل عامود من حجر قائم اتخذ شكلها بعد وفاتها، في مدينة أثينة... "أعرف نفسك"، أساس حوارات سقراط وتعاليمه وبحثه في أعماق النفس البشرية، في الإنسان، طبائعه وغرائزه...

سقراط الذي لم يكتب حرفاً واحداً في حياته وإنما انتقلت بعد وفاته، آراءه وأفكاره، مأثوراته وحواراته عبر تلامذته، خاصة تلميذاه الوفيان جداً: زينوفون، وأفلاطون الذي حفظ فلسفة معلمه من الضياع ودوَّنها، بعد ملازمته له طوال العشر السنين الأخيرة! بتلك الطريقة العبقرية، وما أضفاه عليها من زخرفة وتجميل.

عَكس كتابات تلميذه الآخر زينوفون التي تصوّر سقراط أنه شخصية مملة، تردد كلمات معادية ومبتذلة وأحياناً معادية للأدب والفن والديمقراطية.

سقراط ذلك العظيم الذي أثر في تاريخ الفكر الفلسفي بعمق، وعمل على تأصيل وتجذير مذهب "فلسفة الأخلاق" وتهيمن روح مذهبه الفلسفي على آراء معظم فلاسفة الأخلاق الذين جاءوا بعده، وحتى يومنا هذا!...

قضيت مع الأطروحة أحلى وأمتع أوقاتي! "ثورة الحوار السقراطي" أطلقت عليها "ثورة" لأن حقيقتها كانت كذلك، ترسيخ الفضيلة في مواجهة الرذيلة، لأن الفضيلة لدى سقراط علم والرذيلة جهل. حوار يؤديه ببراعة، يهاجم بالحجة القوية والمنطق الحذق والبراهين المقنعة، يوقع محاوره أو خصمه في الارتباك ولا يبادر في الإتيان على الأجوبة فيما يطرحه من تساؤلات ولكنه يستخرجها من محاوره نفسه، ليؤكد أن العدالة وسائر الفضائل تتلخص في الحكمة ومعرفة الخير، وأن السعادة لا تتحقق إلا بممارسة الفضيلة!...

ورغم أن التمثال الرخامي النصفي الذي وجد بين أنقاض التماثيل اليونانية القديمة، لا يخبرنا عن وسامة تذكر لسقراط ذي الرأس الأصلع، والوجه المستدير، والعينين العميقتين، والأنف الكبير العريض المفلطح. لكنه يخبرنا عن دماثة ولطافة وبساطة لمفكر ومعلم ومحاور لا ينافسه أحد!...

ذلك "الحوار السقراطي" الذي جعلني ابحث فيه بنهم، كما كان يفعل شباب أثينا المتأثرون بمعلمهم والمحبون

له، والسائرون على نهجه وتعاليمه التي كان يستخدم فيها أشرف الطرق وأنبلها إلى بلوغ الحقيقة، حتى مع معارضيه من السفسطائيين والتي جرته إلى المحاكمة بتهمة الإلحاد وإفساد الشباب والحكم عليه بتجرع السم!...

تلك المحاكمة، التي استعمل سقراط فيها حكمته وبراعته كرجل منطق وفيلسوف من أجل غرض سياسي، فأذل خصومه من المتحاورين وأثار غضبهم، وجعل قادة المدينة جميعاً يظهرون بمظهر الحمقى، وجعل من مضمون الرسالة التي تسلمها من كاهنة معبد دلفي وتقول: "سقراط متفوق جداً عن بقية البشر"!!!... إلى رحلة ذاتية لتمجيد الذات لديه، وتحقير لأعظم رجال المدينة المحترمين، حيث كانت إجابات سقراط تعرض أن جهلهم حقيقي، في حين كانوا يشعرون بأن استعراضه لجهله الشخصي كان مظهرياً وادعائياً.

كان محاوروه يشعرون بأن خلف ستار التهكم، أو خلف تواضع سقراط المصطنع، ضحك عليهم وتحقير لهم واستهزاء. خاصة عندما كان يسأل عن تعريفات لم يتمكن هو نفسه من الوصول إليها، و يدحض أي تعريفات يقدمها محاوره بمنتهى السهولة، وكان هذا مصحوباً دوماً بنفس الحيل اللفظية والتلاعب بالألفاظ، التي كان سقراط نفسه ينسبها إلى السفسطائيين وأطلق عليها سفسطة! وتلك هي "المفارقة السقراطية" الشهيرة، التي أوجدت كلمة "التهكمirony" ومعناها: ينافق أو يتظاهر بالجهل بموضوع ما وهو يعني شيء آخر.

تنقذني هناء من هذه الأجواء خاصة بعد أن أصبحت تملك الكثير من الوقت بعد مناقشتها للماجستير، لنخرج معاً للتنزه في الحدائق العامة أو مشاهدة فلم سينمائي أو السير بمحاذاة كورنيش النيل الساحر! القاهرة، إنها المدينة التي لا تشعر فيها بالملل أبداً، المدينة التي تحرضك كل يوم على إعادة اكتشافها وإعادة صياغة حروفها في قلبك!...

الأكثر متعة لنا كان يوم الخروج للسوق، لتموين الشقة بمتطلبات الشهر من منظفات، وتموين الثلاجة بشراء الخضار والفاكهة واللحمة. تطلق عليه هناء "يوم الطبخ العالمي" لتنوع الوجبات التي نتفنن في طخها مكافأة لأنفسنا بعد عناء شهر في تناول الوجبات السريعة من المطاعم أو تناول السندوتشات سهلة التحضير.

خلال الستة أشهر التي سبقت فترة المناقشة، أيضاً تعبت معي هناء بشكل واضح، كم هي رائعة هذه "الهناء" ومذهلة! تواجه الحياة الآن وتتصرف كأنها أبدا لم تكن يوماً تلك الفتاة المدللة التي لم يرفض لها والدها طلب!...

اعتمدتُ عليها في طباعة الفصول التي انتهى منها أولا بأول على الكمبيوتر! ومن ثم تصحيح تعديلاتي حتى تمكنتُ من تسليمها للمشرف الرئيسي عليها في موعدها! على أن يشكل لجنة للمناقشة النهائية لها! ويعلمني بموعدها.

جاء قرار المشرف الرئيسي بعد قراءة الأطروحة بضرورة وجود مناقش خارجي من جامعة صنعاء في نفس التخصص مفاجئاً لي! خاصة بعد أن ترك لي حرية

تحديد اسم للمناقش الخارجي، فيما لو فضلت ترشيح أحد الدكاترة بحكم معرفتي بهم في قسم الفلسفة! لم أحدد اسم دكتور بعينه واكتفيت بإرسال الأوراق الخاصة بالإجراءات لرئيس القسم في جامعة صنعاء ليتولى المهمة!. لعلّ رئيس قسمنا هو نفسه من سيحضر بالتأكيد، فموضوع الأطروحة في صلب تخصصه!...

كان حازم هو الشخص المناسب لمتابعة سير هذه الإجراءات بشكل سريع فيما لو أرسلت له الأوراق الخاصة بذلك! لكنه سافر منذ عام لأمريكا لتحضير الماجستير كما أخبرني في آخر رسالة بريد الكتروني بعثها لي!... لم ينقطع يوما عن مراسلتي وموافاتي بالجديد في حياته ومتابعة دراسته، منذ عودته إلى صنعاء بعد تلك الرحلة الصيفية له للقاهرة، وفشل كل محاولاته معي للتجاوب معه في مشاعره الصادقة نحوي. كنت خلالها مؤدية جيدة لدور المُدرسة التي تفسر كل ما يقوم به طلابها بحسن نية! متجاهلة تلميحات أو كلمات أو تصرفات يقصد بها شيء آخر!... لا أعرف بمن استعان حازم ليحصل على هذه المنحة، فمنح أمريكا لا يفوز بها إلا ذوو الوساطات العليا أو أبناء وأقارب الوزراء والمسئولين، ربما كان حازم ذاته أحد أبناء هؤلاء! لا أعرف لأني لم اسأل يوماً في هذا، ربما عند عودته يمكنني السؤال!...

أخذت الإجراءات سيرها الروتيني الممل، بدأت بانعقاد مجلس القسم وترشيح كل أعضاء لجنة المناقشة!... وانتهت بعد شهر ونصف تم خلالها تحديد موعد لمناقشة الأطروحة.

لم يتمكن أحد من أهلي من الحضور! أصبح لكل منهم مشاغله ومتاعبه في مواجهة الحياة. أما أبي الذي لم يخلف يوماً وعداً قطعه على نفسه، ووعدني عند مغادرة صنعاء بحضور مناقشة الأطروحة، فقد كان يعاني من أزمة صحية، ولم يتمكن هو أيضاً من الحضور! وحدها سلى التي لم تخب ظني! جاءت من فرنسا وعادت في نفس اليوم لحضور المناقشة وتهنئتي!...

الليلة التي سبقت الدفاع عن الأطروحة مباشرة، لم أنم فيها! لم أكن اشعر بالقلق أو التوتر لأحدد سبب عدم النوم، وأجيب في نفس الوقت على سؤال هناء "ماذا بك؟" لكني اكتفيت بالنظر إليها وأنا ألقي في وجهها عبارة "اوسكار وايلد" مجدداً لتكف عن ملاحقتي بسؤالها: (إن أصعب شيء تقوم به في هذا العالم، هو أن لا تفعل شيئاً على الإطلاق، هو الأصعب، وهو الأعقل!...).

قطع وصول سلى فجراً كل ذلك! قضينا ثلاثتنا ما تبقى من الوقت في الحديث عن أولادها، وعن شدة سعادتها من الصدفة التي جعلت يوم الدفاع عن أطروحتي يصادف إجازة نهاية الأسبوع في فرنسا، لذلك سيتمكن زوجها من البقاء مع ولديها حتى عودتها فجر يوم غد!.

توجهنا بعد ذلك إلى الجامعة وكلتاهما سلى وهناء تمطراني بوابل من الأدعية. لعلهما لم تتركا عبارة ابتهال صغيرة من مخزون ذاكرتهما إلا ورددتاها

أمامي! جاهدت كثيراً لأصمد أمام كل ذلك بعدم البكاء، فقد كانت تلك اللحظات بالذات غايتي ومرادي!...

جلست هناء وسلى في المدرج قبالتي! بدوت مرتبكة أردد كل ما حفظته من سور القرآن وأنا أمسك ب"قحيطة" أمي التي في صدري بطريقة لا تبدو ملفته للنظر في انتظار دخول اللجنة التي ستقوم بمناقشتي! أرتب أوراق العرض أمامي وأعد ضبط شاشة الكمبيوتر.

بدت لي قاعة الدفاع مختلفة بعض الشيء، رغم أنها ليست المرة الأولى التي أدخلها، فقد كنت حريصة على حضور معظم مناقشات الدفاع للطلبة اليمنيين بوجه خاص، والوافدين بشكل عام. لأن القاعة تكون مقارنة بالحضور للطلبة المصريين شبه فارغة إلا من الأصدقاء وبعض أعضاء الملحقيات الثقافية لدول الطلبة المبعوثين، الحريصين على تشجيع الطلبة وحضور مناقشات دفاعهم عن الأطروحات!...

ربما بدت لي مختلفة لأني أراها من جانبها الآخر، الجانب المواجه للحضور والقريب من لجنة التحكيم! موقع يجعلك تشعر بالرهبة وربما الخوف مهما كنت واثقاً من نفسك! محدقة تارة في الأوراق أمامي، وتارة أخرى في الباب الذي ستدخل منة لجنة التحكيم بعد دقائق!...

وقف الحضور في القاعة عند دخول لجنة المناقشة والتحكيم! ثلاثتهم تفيض ملامحهم وقاراً، جدية تكتسح وجوههم، وبياض شعر، ينبئ عن عراك طويل مع العلم

ومع الحياة! تعلو أكتافهم معاطف موحدة اللون، تجعل منهم أكثر تميزاً وأكثر خصوصية بل وأكثر هيبة! استقروا على مقاعدهم، عم الهدوء أرجاء القاعة، تجول عيناي بين القلة من الحضور وبينهم و..

يا الهي! كاد أن يغمى عليّ من هول المفاجأة! من شدتها!. هل ما أراه الآن حقيقة أم أن عينيي تخدعاني؟ هل هذا الذي أمامي، ويستقر على مقعد ثالث أعضاء لجنة المناقشة هو هشام! المناقش الخارجي الذي تم تعيينه، أم انه شخص آخر، يشبهه تماماً في الطول والعرض والملامح! أم أنه خيالي وشدة شوقي ورغبتي في حضوره، هي التي صورت لي ذلك!...

بدا التناقض واضحاً بين ملامح سلى وهي خائفة عليّ! تحاول أن تقول لي: اهدئي لأن الذي ترينه الآن فعلاً هو هشام! وبين ملامح الحيرة التي اكتسحت وجه هناء وهي تحاول أن تفهم لماذا امتقع لوني! وبدت على وجهي علامات اختلط عليها فيما لو كانت خوف! أو دهشة! أو تبلد فجائي! من هول اللحظة! التي يعلن فيها الآن المشرف الرئيسي البدء في عرض الأطروحة! لديها حق هناء، فهي لا تعرف شكل هشام! وإلا كانت أشفقت عليّ من معاناة وحيرة وخوف تلك اللحظة بالذات!!!...

استجمعت كل قواي، وشحذت همتي للدفاع عن نفسي أولاً أمام هشام، (بغض النظر عن دفاعي عن الأطروحة) كما يفعل المحارب الذي ليس أمامه إلا النصر أو الموت! تحديت نفسي لأنتصر على كل تلك

المشاعر المتناقضة التي داهمتني بعد يقيني من أنه هشام! بشحمه ولحمه، هشام الذي أشعره الآن يلاحقني بنظراته وأنا أنصت لبداية مراسيم المناقشة من المشرف! وأختلس النظر إليه كلما أحنى رأسه لينصت لما يقوله رئيس اللجنة!...

آه هشام، ثمان سنوات لم تغير فيه شيئاً. بياض شعر رأسه زاده وقاراً وهيبة!. محافظاً على لياقته كما كان، أعلم أنه يحب المشي كثيراً بل يعشقه بشكل جنوني، كان يشكو أن صنعاء حرمته من هذه المتعة، لكن ساحل أبين في عدن، يمكنه من ممارستها كل يوم في الصباح الباكر! أنيق جداً، تبدو ربطة العنق بتداخلات لونها الترابي ملائمة جداً للون القميص الذي لا يظهر منه سوى ياقته، المتناغمة تماماً مع لون المعطف الخاص بأعضاء لجنة المناقشة، وكأنه على علم مسبق بشكله ولونه!...

أي صدفة هذه التي دبرها لي القدر أم أن هشام هو المدبر لها؟ ها هو أخيراً يرى إنجاز طالبته الذكية والمتميزة كما كان يقول! أسئلة كثيرة تتابعت بغرابتها على رأسي في وقت لا مجال فيه للتفكير فيها أو حتى محاولة البحث لها عن إجابة!...

ألقيت بكل ذلك وراء ظهري وبدأت في عرض ملخص الأطروحة ونتائجها!. جرت العادة أنه حال انتهاء الطالب من عرضه، يبدأ المناقش الخارجي في توجيه أسئلته، لكن هشام طلب أن يكون ترتيبه الأخير في المناقشة، بعد المناقش الداخلي! ربما كان يريدني أن

أزداد هدوءاً، فيما لو كنت متهيبة من حواره والرد على أسئلته من هول المفاجأة، التي يعلم جيداً أنها لم تكن سهلة أبداً عليّ! وربما أراد! أراد! أراد ماذا؟ لا أعرف!...

ها أنا في هذه اللحظة أستخدم طريقتي في القضاء على الشعور بأي ألم جسدي يصيبني، أحاول نسيان الألم وأفكر في أي شيء آخر، يحقق لي الراحة والسعادة، ليصبح تخيل البحر وعد أمواجه! أو تخيل السماء وعد السحب فيها، أو حتى تخيل الغابة وعد أشجارها، بديلاً ينقذك من التفكير والتماهي فيه، من ألم لا ينفعك فيه تناول المهدئات! طريقة قد تبدوا غبية يستخدمها الأطفال ليغطوا في النوم العميق مع فارق أنهم يعدون خِراف المزرعة، وأنا أعد أشياء أخرى. لا يهم. المهم أنها فعالة معي وتريحني وتنقذني!...

ها أنا أتجاهل كل من في القاعة: الحضور، سلى، هناء، اللجنة، وهشام أيضاً، باستثناء المناقش الداخلي الذي كانت أسئلته بسيطة وروتينية ومتوقعة بعض الشيء لذلك لم يستغرق الرد عليها وقتاً طويلاً! بعد مجهود التركيز الذي استنفذ جل طاقتي، قبل الولوج إلى عالم هشام وأسئلته، التي أعلم جيداً أنها ستسير وفق خطة معينة سيرسمها هشام في دماغه كما كان يفعل في محاضراته! ليضيق الخناق على المحاور الذي يعتبره خصماً ولن ينفذ إلا بجدارته ومجهوده!...

الأصعب من العرض كان مواجهتي له وردي على أسئلته، كم بدا هادئاً وهو يناقشني! مدحرجاً أسئلته بمنتهى الرقة! وكأنه يقول لي: إهدئي! فكري! اتركي

نفسك لي! غوصي في عيني! أجيبي بثقة وتأن! لأني أحتاجكِ! أشتاقكِ! أحبكِ فرح وسأظل!...

لكني لم أكن كذلك! لم أكن كما تمنى أن أكون، بركان غضب يغلي داخلي، ثورة تمرد بادية على ملامحي، تحدّ لنفسي في صمودي وقدرتي على الإجابة على أسئلته مباشرة! شيئاً فشيئاً زال الحاجز الذي صنعته في أعماقي من خوف المواجهة! شعرت أن هالة كانت تحف هشام قد سقطت في تلك اللحظة بالذات، لتصبح نظراتي إليه أكثر قوة وصموداً في المواجهه! استقبل منه أسئلته، وارد عليه في ذات اللحظة!...

أدهشه ذلك، نسي أو ربما تناسى كم أفهمه وأن أسئلته الاستنكارية والاستفهامية أحياناً، التهكمية الساخرة أحياناً أخرى، مفضوحة تماماً بالنسبة لي!... لم تربكني أو توقعني في التردد كما توقع، لأني أعلم جيداً كم يعشق سقراط، وكم هو متأثر بآرائه وأفكاره! ولن يخلو الأمر من استخدام ولو جزء يسير من منهجه في الحوار معي! لم تخل إجاباتي من تلميحات وتعليقات لم تكن في صلب الموضوع! لا أنكر أن هشام امتصها بحكمة ورويّة دون أن يتضح ذلك للحاضرين أو حتى لأعضاء اللجنة الباقين! كان في هذه الحالة سقراطياً بمعنى الكلمة، أستخدم أشرف الطرق وأنبلها ليكبح جِماح ثورتي عليه! التي لم يكن توقيتها مناسباً أبداً، لكنها فرصة شعرت أنها لن تعوض! ليصله شيئان: القوة العلمية التي أصبحت أجابه بها معلمي، ولأوضح له مقدار الألم الذي سببه لي طيلة فترة غيابه!...

لا أدري إن كنت أنتقم منه في تلك اللحظات، وأنا لم أفكر يوماً في ذلك، ولماذا كنت أصر على تذييل إجاباتي بعبارات جوهرية لسقراط، وكأني ألقي بها في وجهه غير عابئة بالطريقة التي ستصله أو سيفسرها بها. كانت العبارات كتاباً مفتوحاً أمامي، لم تحظ باهتمامي فقط، لكنها أيضاً حظيت بعناية الفلاسفة والمفكرين الأخلاقيين بعده، عبارات الفضيلة والرذيلة، العدل والخير... "السعادة تتحقق بممارسة الفضيلة" " التعليم يجب أن يستهدف ترسيخ الفضائل" "العفة ترتبط بمعرفة الإنسان لنفسه"...

ما كان يغيظني هو أنني أتعمد أن أستفزه، وهو يقابل ذلك بمنتهى الهدوء، راسماً على شفتيه تلك الابتسامة الساحرة التي أذوب فيها عشقاً! متعمداً أن أخرج أكبر قدر من حنقي عليه قد أخفف شيئاً منه.

التقط عبارة سقراط الأخيرة "العفة ترتبط بمعرفة الإنسان لنفسه" وبدأ يشرحها بطريقة عميقة جداً، يوجه لي خلال شرحه أسئلة تدور حولها، ومن وحي حوارات محاكمة سقراط، ويقطع استرسالي في الإجابات عنها بطريقة استفزازية، تم خلالها الوصول إلى الحوار الذي استخدم فيه سقراط عبارته تلك، وتداعيات الحوار في التعريفات المضافة للعفة.

توقف هشام عن الحديث قليلاً ربما ليلتقط أنفاسه، ووجدتها فرصة مناسبة للرد دفعة واحدة عن استفساراته بذات الطريقة الاستفزازية التي استخدمها معي! تحدثت بذات الثقة التي سبقت إجاباتي على الأسئلة السابقة:

عبارة سقراط تلك كانت رداً على خرميدس الذي عرّف العفة بقوله: "العفة أن يظهر المرء وقاراً هادئاً في كل أفعاله، في مشيته، وحديثه، وجميع سلوكياته، وعلى الإجمال: فأن العفة تتلخص في البعد عن التهور والتسرع". وهذا بدوره يؤكد ارتباطها بالنفس البشرية التي أكد عليها سقراط بعبارته المشهورة والمنحوتة على باب معبد دلفي في اليونان: "أعرف نفسك"!.

ركز هشام أسئلته بعد ذلك على منهج البحث في الأطروحة وعلى نتائجها الرئيسية التي حاولتْ سرد وتحديد الأفكار الجوهرية التي تشغل الفلسفة المعاصرة اليوم، والتي برزت جذورها الجنينية في بدايات الفلسفة الإغريقية، وركز أيضاً بشكل خاص على "نظرية المعرفة" في طورها الجنيني منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو وحتى أبعادها الفلسفية اليوم!...

اشتبكت بعدها معه في جدل وتفاعل حول نظرية المعرفة، تعريفها، أساسها، مداها، بداية ظهور النظرية في العصر الحديث والمرتبطة بالفيلسوف الإنجليزي "لوك"، وعلاقتها بالقضايا الفلسفية التي طرحها الفلاسفة الإغريق... وانتهيتُ بآخر ما وصل إليه الفكر الحديث و"الثورة الادراكية" من جديد في هذا الجانب.

أوقفني هشام موضحاً أنه يكتفي بهذا القدر من النقاش، قبل أن يشكرني بوابل من كلمات المديح في الأطروحة، منهج بحثها ونتائجها الجوهرية، وأسلوب الحوار المتبع من اللجنة وجدية الإجابات من قبلي... ويرغب في سؤالي سؤالاً ختامياً ليس له علاقة بموضوع الأطروحة،

لكنه في صلب جذور الفلسفة الإغريقية، فترة التأسيس، فترة الإلياذة في عصر هوميروس قائلاً:

تحدثتِ عن الإلياذة كثيراً في أطروحتك، وكونك أيضاً مهتمة إلى جانب الفلسفة بالأدب عموماً، والرواية بشكل خاص، كما أذكر عندما كنت طالبة في جامعة صنعاء، ألا تظنين أن هذا القرن، قرن الإلياذة، هو أيضاً قرن التأسيس للرواية الأوربية الحديثة؟ ألا توافقيني القول بأن الرواية الأوربية الحديثة تدور حول نفس محور بداية صراع الإلياذة: الصراع حول امرأة؟

ثم أردف موضحاً سؤاله، وكأنه شعر بدهشتي من سؤاله، وربما عدم استيعابه من المرة الأولى، خاصة أنه يبوح بمعلومة لا يعلمها إلا هو: اهتمامي بقراءة الروايات ومحاولات بائسة لكتابتها، منذ أن قرأت له جزء من أحداها في حديقة منزله الرائعة، التي لن أمل من تكرار كلامي عنها وعن نشوة استمتاعي بتلك الساعات قبالته.

واصل هشام مذكِّراً أولاً ببعض تفاصيل الإلياذة: الإلياذة تبدأ بصراع بين ملك البشر أجاممنون، والمحارب البارز اخيالوس، ابن حورية البحر ستيتس، بسبب "نزوة" اجيناممنون الذي أختطف خريسيدس من أبيها الكاهن أبوللو (إله الشفاء والطاعون).

اخياليوس أرهب وأعظم المقاتلين يطالب بإعادتها لإنقاذ البلاد من الطاعون الذي سيرسله الكاهن إذا لم تعاد ابنته. يقوم اخياليوس بالدعوة لاجتماع مجلس الشيوخ، دون الحصول على إذن من الملك أجاممنون،

ويقرر المجلس إرغام أجاممنون ليتخلى عن الفتاة الأسيرة وإعادتها إلى أبيها، بعدها يرفع الإله أبوللو الطاعون عن المعسكر بعد أن بدأ يعج بمحارق الجثث المشتعلة!...

ينتقم أجاممنون من أخياليوس ويأسر فتاته التي يحبها، يترك إثرها اخياليوس المعركة. يقرر الأخير الانتقام نتيجة كبريائه المجروح، يسرع إلى أمه، لتقنع زيوس بأن ينتقم له من أجاممنون!...إلى آخر الحكاية التي تعرفين بقيتها بالتأكيد...

يتوقف هشام قليلاً ليوضِّح سؤاله: أنتِ قلتِ في الأطروحة إن القضايا الفلسفية التي طرحها الفلاسفة الإغريق الأوائل ظلت محور الفلسفة المعاصرة حتى اليوم، ألا تنطبق هذه الفكرة على الأدب لا سيما الرواية؟ أقصد الإلياذة التي تحكي حرب طروادة، بدأت بصراع قائدين عسكريين حول معشوقة! سؤالي هو: الصراع من أجل امرأة، أليس هذا هو نفس المحور الذي تدور حوله في الغالب الرواية الحديثة، والفكرة الأكثر استحواذاً على صيغها السردية المتنوعة؟

ألا يمكن القول إن الرواية الأوربية الحديثة بعد ثلاثة ألف سنة، تعيد نفس هذا الدور الرئيس للمرأة في كل قصة بشكل أو بآخر؟ نفس الدور الذي بدأت به صراعات الإلياذة، أول واهم الأعمال في الأدب الأوربي؟

وجدتني بعد سؤاله هذا أجيب دون شعور، ونبرة صوتي الحادة التي تمنيت أن تصله بالذات تقول أشياء كثيرة.

صرختُ: إنني لا أوافق على كلمة "نزوة"! لأن أجاممون قال إنه أحب أسيرته خريسيس وفُتن بها، وأعلن ذلك صراحة وأنه يفضلها على زوجته كليتمنسترا!...

أردفتُ بنوعٍ من الغضب لم يفهمه أحد من الحضور إلا هشام نفسه: ليس عيب أجاممون بأنه استسلم لقرار المجلس بإعادة خريسيس، وانتقم من اخياليوس بعد ذلك، لكن كونه لم يجد طريقة صائبة يكسب بها الجميع ويحافظ على الفتاة التي يحبها!...

لم أدر إن كنتُ أدافع عن خريسيدس أم عن نفسي خلال هذا الإجابة!...

خيم صمت عميق على القاعة، لم يفهم الجميع ما يدور، ربما لم يتوقع هشام الذي كان مبتسماً عند طرح سؤاله، أن تكون هذه إجابتي، ومن هذه الزاوية بالذات. دل على ذلك سكوته المفاجئ وعدم تعليقه. لم أعد قادرة على الاسترسال في الحديث، خارت قواي فجأة، من ألم حاولت مراراً أن لا يقضي عليّ، من حيرة لا زالت حتى اللحظة جاثمة على صدري!...

شعر بذلك هشام، دحرج كلمة أخيرة قبل أن ينهى مناقشته، وصلتني صادقة لأنها كانت لي وحدي، تعنيني وحدي، تقول جزءاً مما سيقوله فيما لو برر سبب اختفاءه، قال هشام جملته وحنان الكون يقطر من نبراته

الدافئة: ربما كانت هذه الطريقة والطريقة الوحيدة من وجهة نظر أجاممون، في المحافظة على الفتاة التي أحبها! بعيداً عن تنفيذه لقرار المجلس التي أرغمه عليها!...

انتهى كل شيء، سيتم إعلان النتيجة خلال دقائق من تشاور أعضاء اللجنة، الذين اختفوا عن الأنظار مؤقتاً في القاعة المغلقة، الملحقة بالقاعة الرئيسية!. أخذني التفكير خلالها في سؤال هشام الأخير، وأنا لا أقوى على السيطرة على تلك الرجفة الغريبة في أعماقي، رغم نظرات سلى وهناء التي تبعث على الاطمئنان، وتساءلت فيما إذا كان يقصد أن لا أسرع في حكمي عليه؟ وأن لا أتهور بالقرار المسبق عليه قبل سماعه وهو يدافع عن نفسه، أم ماذا كان يقصد؟

قطع فضاء استغراقي في ذلك دخول أعضاء اللجنة مجدداً. وقف جميع من في القاعة لسماع حكم لجنة المناقشة لأطروحتي. سلى وابتسامتها المرسلة نحوي بكل براءتها وصدقها. هناء تلوح لي بيدها علامة نصر تشرشل. هشام ونظراته التي أشعرها تخترقني وتحاصرني!. وأنا في ذلك الركن المواجه للجنة، التي للتو أعلن المشرف الرئيسي إجازتها أطروحتي ومنحي لقب الدكتوراه!.

علا التصفيق في أرجاء القاعة. حانت ساعة الصفر كما يقولون!. كان عليّ التقدم لمصافحة أعضاء اللجنة وشكرهم. سأقترب من هشام! سأصافحه! ماذا أفعل؟ وكيف أتصرف؟ وماذا أقول؟ لا خيار أمامي، تقدمت

باتجاههم متظاهرة بالفرحة! وأنا أرتعش من أعماقي، وكأن تلك القوة التي كانت منذ دقائق وعاهدت نفسي على الاستمرار والتحدي، لم تكن! صافحتهم جميعاً، وصولاً إلى هشام الذي كان ترتيبه الأخير بينهم. أطبق بكلتا يديه على يدي المرتجفة وهو يقول: مبروك يا دكتورة!...

كم تمنيت لو ألقي بنفسي بين ذراعيه الآن! لن أبكي، ولن أعاتبه. سأسامحه على كل ما فعله بي! سأغفر له كل أخطائه في حقي! لن أطلب منه مبررات لما فعله أو شرح! يكفي أنه عاد، يكفي أنه الآن أمامي ويحتضن يدي بكل هذا الحنان والحب الذي تعبر عنه نظرات عينيه والشوق الطافح منها!

أقبلت سلى وهناء لتهنئتي! ولالتقاط الصور التذكارية، بينما انشغل هشام بفتح كيس بلاستيكي كان إلى جواره ليخرج ما فيه!...

أطلقت سلى وهناء صيحات دهشة واستغراب! وهما تنظران إلى ما أخرجه هشام من كيسه البلاستيكي! أما أنا فقد أدهشت المفاجأة بروعتها كل حواسي! لم أنطق بكلمة واحدة! أنظره وهو يقترب مني ليطوقني بعقد "فل لحجي"[23] بطول قامتي! لفت انتشار عبقه في أرجاء المكان الجميع! ليسأل ويعرف من أين وكيف أوصله إلى القاهرة، وهو بهذه الروعة والجمال، ولم تؤثر فيه المسافة والوقت!.

[23]لحج: اسم مدينة قريبة من عدن وتشتهر بزراعة الفل.

في غمرة كل هذا الفرح، وهذه الروعة، وبعد التقاط سلى لصور عديدة ومتنوعة توجهنا للمنزل. لم تنس هناء دعوة هشام للاحتفال معنا في شقتها. موافقته على مرافقتنا بتلك البساطة لم تكن متوقعة، من قبلي على الأقل!...

توقعت أشياء أخرى غيرها، مثلاً: أن يرفض دعوتها ويفضل تحديد موعد آخر، ويصر على لقائي أولاً، رغم تلهفه وشوقه للتعرف على سلى وهناء! وأن يطلب رؤيتي في مكان هادئ، يشرح فيه ما يريد، ويجيب على أشياء كثيرة سأسأله عنها بالتأكيد، ليقضي على ألم وحيرة السنوات الماضية، لكنه لم يفعل وكأنه يريد أن يمتص ثورة غضبي وحنقي عليه إلى أقصى درجة قبل الإنفراد بي والحديث معي!...

لم أصدق أنني أتمتع بالمنظر الخرافي للنيل من شقة هناء، وإلى جواري سلى وهشام، الذي كان سعيداً جداً بالتعرف عليها، بعد أن حدثته عنها طويلا، ولم تخل مقابلاتنا يوماً من ذكرها. بدوت شاردة الذهن قليلاً ومع ذلك تحدثنا في مواضيع عامة، عن المناقشة، وعن شقة هناء وروعة منظر نهر النيل منها، خاصة في المساء، وعن سلى وحياتها في باريس وضرورة عودتها فجر غد!...

لم نتطرق لأي مواضيع تخص علاقتنا، ولم يشرح هشام أو يبين كيفية حضوره إلى القاهرة، أو سبب اختفائه المفاجئ في اللحظات التي كانت تنشغل فيها هناء وسلى بالحديث معاً!.

استأذن ليودعنا بعد ساعة تقريباً عائداً للفندق. طالباً مني تحديد موعد آخر لرؤيتي قائلاً: أنا بحاجة ماسة للحديث معك فرح!...

لم أنزع عقد الفل الذي طوقني به طيلة اليوم. رغم تعليقات سلى وهناء المستفزة لي لأنزعه دون فائدة! وضعته أيضاً في المساء إلى جواري على السرير! وثلاثتنا نتغزل بروعة عبقه، وبنقاء بياضه الناصع الذي لم يزين بالورود الصغيرة ذات اللون الوردي الذي لا أحب تقسيماتها لاسترسال نقائه!...

آآآه هشام كم أنت مدهش في التقاط تفاصيلي الصغيرة! وفي التعبير عنها. تصلني تماماً كما تريد، صادقة ونقية مثلك أيها اللغز الذي ما زلت رغم كل هذا الحب اجهله!...

لم ننم ليلتها، حتى ودعت أنا وهناء سلى التي غادرت فجراً عائدة لباريس. ناقشنا طويلاً موضوع هشام ولم نصل لنتيجة!. كانت مثلي تماماً يدور في رأسها ألف سؤال وسؤال، طلبت منى إعلامها، حال معرفتي الإجابة عنها من هشام! إذا ما رغبت ذلك وإذا لم أرغب فيكفي أن أكون مسؤولة عن قرار اختياري! كان لديها حق. الاختيار في حد ذاته قرار، نحن المسؤولون عن تحمل تبعاته!...

هشام قبالتي، لا يفصلني عنه سوى طاولة عليها غطاء أحمر موشى بورود صغيرة في أطرافه. في "كازينو قصر النيل" في القاهرة. ولا يفصلنا معاً عن النيل سوى سور أنيق لا يتجاوز ارتفاعه النصف متر من أعمدة

الألمنيوم الرشيقة التي يعلوها قضيب من نفس المادة يمكن تطويقه باليد!

أنا التي اخترت "الكازينو" بعد اتصال هشام لمنزل هناء طالباً منى تحديد الوقت والمكان المناسب لرؤيتي! ليس لأن الكازينو هو الأشهر والأكثر استخداماً للقاءات الغرامية في الأفلام المصرية القديمة التي أعشقها، والحديثة أيضاً! بل لأنني طيلة الثلاثة أعوام أدمنت ارتياده وحيدة! والتمتع بمنظر النيل الخلاب منه، أرقب من طاولتي، كل الأحبة المارين على "كوبري قصر النيل"[24] قبالتي، ثنائيات فرحة بحبها، متشابكة الأيدي، يبارك النيل مشاعرها النقية ويحلق بأحلامها عالياً!... أشعر بالغيرة أحياناً من السعادة التي تجاهر بوجودها أمام الملأ دون خوف أو خجل! وليس أمامي إلا مراقبتها في صمت.

ها أنا أمام هشام، غير مصدقة فيما إذا كان ذلك حلماً أم حقيقة! تغادر قاموسي كل الكلمات، يغزو فضائي بياض لذيذ، أتماهى في بهائه، أذوب في ألقه، تدغدغ أوصالي ترنيماته، وتهمس في أعطاف مشاعري تنهُّداته. أتمنى لو أتوحد معه وأإنصهر في نقائه وأتأتئ أولى كلماتي وأنقشها في دهشته! برفقة ذلك الذي لم يغادرني يوماً طيفه، برفقة هشام الذي أحتاج لمئات التأكيدات منه أولاً بأنه حقاً أمامي، ومن "الجرسون"

---

[24] أحد جسور مدينة القاهرة الذي يربط جزيرة الزمالك بمنطقة التحرير في وسط البلد.

الذي شهد حضوري طيلة الثلاثة أعوام وحيدة، تغزو ملامحه علامات الاستغراب والدهشة من انغماسي في طقوس أؤديها منفردة وكأني أشارك فيها أحداً أمامي، أو أنتظر مجهولاً لا أعرف فيما إذا كان الآن حقيقة، أم أنني سأستيقظ من روعة حلم وردي جميل، فر من مناماتي منذ زمن! وأنني بعد أقل من دقائق سأطلب من الجرسون كوب شاي قبل الانخراط في مناجاة النيل، أو وشوشة ذلك العنكبوت الذي ينسج خيوطه الفضية أسفل عمود النور إلى يميني!...

بدا هشام في بداية الأمر مرتبكاً! غير قادر على تحديد نقطة انطلاق، يمكنه البدء منها! صامتاً يرقب النيل، يعلو زفيره، نافخاً في الهواء مرات متلاحقة بدأت تشعره بالقلق والتوتر! أشفقت عليه لأن الموقف لم يكن سهلاً أبداً. أعرف حجم ما يعانيه الآن أمامي... يريد بدء الحديث! يريد أن يشرح كل شيء! أن يوضح أموراً كثيرة، هو أمامي الآن ليقولها!...

لم أمكنه من ذلك، ولم يتوقع أن أكبت فضولي والنار المتأججة في أعماقي لمعرفة سبب ما فعله بي. أردته أولاً أن يعرف ما عانيت، وكم قاسيت من تجارب كنت في غنى عنها. وكم كان وضوحه معي سيغير أشياء كثيرة في مسار حياتي!...

كان إنصاته مدهشاً جعلني استرسل في الحديث دون توقف. انفعلت في البداية، وبدت على ملامحي علامات الحنق، وأنا استخدم كلمات العتاب من تركي فريسة سهلة للحيرة، التي مزقتني من جراء اختفائه المفاجئ،

ونحن في قمة تمتعنا بقصة حب نادرة، حلمت بها وتمنيت خوض تفاصيلها معه! وأنني خلال تلك الفترة لم أشعر باليأس، ولم يغادرني الأمل في عودته، مهما طال غيابه، حتى حصولي على الماجستير واستنفاذ كل مبررات الرفض للزواج! حتى ظهور سامي في حياتي وموافقتي على الزواج منه!...

حكيت له عن تجربتي مع سامي، ذلك الغول الذي افترس أمان حياتي وهدوءها بمتناقضاته وبغرابة تصرفاته، لم أخجل من تعريتها أمامه، ولم أخُف عنه حيرتي من غرابة الحادث الذي أودى بحياة سامي خاصة بعد اكتشافي لمرضه الخطير! وكأني أحكيها للمرة الأخيرة!

سردت عليه بتأن روعة الأيام التي قضيتها في الشيخ عثمان في بيت أم زياد، رغم صعوبة الفترة التي قضيتها أيام حرب **1994** وأنني كنت في غاية السعادة بمرافقة طيفه لي وشعوري بقربه حتى لو لم أره!...

بدت عليه علامات الدهشة وأنا أسهب في شرح الفترة التي تلت موت سامي وشعور الإحباط والكآبة الذي اعتقدت أنني لن أتخلص منه أبداً، لولا ظرف التقارير الطبية لسامي الذي أرسلته لي سلى، وأنقذني من كل ذلك، وجعلني أفكر بشكل جدي في مستقبلي ومواصلة دراستي والمضي قدماً. دون الإلتفات للخلف لتلك التجربة المؤلمة مجدداً، أو أي شيء يمكن أن يعيق حركتي أو يغير مساري!.

وجدتني بعد كل هذا، أنظر إلى النيل أبثه هموم ومشاعر تلك اللحظة المتناقضة في أعماقي، ورغماً عني لم استطع منع دموعي من التعبير عن مرارة ما عانيت وأنا أسترجع كل ذلك أمام هشام، قبل أن أوجه إليه سؤالاً انتظرته كل تلك السنين! سؤال من كلمة واحدة فقط: لماذا؟

أستجمع كل قواه وهو يقول: لأني أحبك!

سكتُ في انتظار أن أسمع منه كل شيء!... لم يتوقف بعدها عن الحديث! وكأنه يلاحق آخِر خيط يُمكنه التقاطه من أعماقي قبل أن تتقطع جميعها للأبد! قبل أن يقول:

أعترف أن طريقة تفكيري كانت في منتهى الجُبن! فراري من أرض المعركة دون إنذار. أشعرني خلالها بهزيمة نكراء رغم انتصاري الواضح للعيان! إنهزامي أمام نفسي أقسى تجربة مررت بها في حياتي! طريقة تفكيري بتلك الأنانية! جعلتني أدور في فلك حبك وبشكل هستيري، أُصاب خلالها بالدوار وأنا اسأل نفسي أيضاً! لماذا؟...

لذا فضلت الاختفاء وأنا أعلم ما سيسببه لك ذلك من ألم! عليّ أن أصارحك بكل شيء؟ كما قررت أن أفعل ذلك الآن! بعد تلك الصدفة التي وهبني إياها القدر ولم أكن أتوقعها أو حتى أتخيلها في يوم ما! صدفة قدومي للقاهرة وحضور دفاعك عن أطروحتك، الذي تألقت فيه البارحة بشكل أذهلني تماماً! وجعلني أشعر بالفخر وأنا أسمع كلمات الإطراء من أعضاء اللجنة فيك كإنسان أولاً طيلة الثلاثة أعوام التي تعاملوا فيها معك، قبل

أطروحتك، وتمكنك العلمي في اختيار موضوعها وكتابتها وحتى مناقشتها!...

كل هذا وأنا أردد في أعماقي، هذه هي فرح، فرح التي خفق قلبي بحبها من أول سؤال لها لي في المحاضرة، عن المطلق في الفلسفة، الجوهر الفرد؟ عن قصة فلسفة الوجود والخلق؟ قصة الروح وجوهر النفس؟...

لم أعلق بكلمة! لم أنبس ببنت شفة! طامعة في استرساله، حتى لو على حساب نار الفضول التي أججت في أعماقي عدداً لا نهائياً من الأسئلة!...

واصل هشام حديثة ونبرات صوته هادئة، محاولاً استجماع شتات أفكاره لتصلني كما أراد لها أن تصل:

أخبرتك في رسالة مطولة عن هروبي من عدن بعد أشهر من أحداث يناير في **1986** وأخبرتك عن شعوري بالألم الفظيع لما حدث لعدن، وأهلها من جراء تلك الحرب التي فضحت كل شيء، الغدر، التآمر، القبلية، المناطقية! أثار كل ذلك غثياني، وقضى على كل أحلامي السابقة في مجتمع مدني تقدمي...

هزة قوية أفقدتني توازني بشكل لم أتصوره، بحيث يمكنني التعامل معه كما يجب، في ظروف نفسية سيئة إلى هذه الدرجة في أعماقي، وبغيظة إلى هذه الدرجة، زلزلت كيان المجتمع، تخلخلت قناعاتي، وأصبحت غير قادر على أن أقوم بدوري الكامل تجاه طلبتي في الجامعة، من غير المعقول أن أُدرس شيء للطلبة،

والواقع يقول شيئاً آخر التناقض في أعماقي هزني وأرقني كثيراً...

فضلت الهرب رغم علمي أنه ليس حلاً، لحين استقرار الأوضاع، ليس من أجلي لكن من أجل استقرار بيتي وأولادي، رأيت أن حياتهم ربما في تلك الفترة وأنا بعيد عنهم، أفضل بكثير من بقائي وأنا في تلك الحالة من الذهول وعدم الاستقرار، والتهرب من مواجهة الواقع من حولي في كل مكان.

وجودي في صنعاء أنت أدرى الناس بتفاصيله وأحداثه، التي كانت بسببك أنت فرح لا غير، من أروع وأجمل وأنقى أيام حياتي قاطبة! وبدلاً من عودتي في ذلك الصيف الذي قضيته متجولاً في أنحاء أوربا، كما تعودت في سنوات تواجدي في صنعاء، يرافقني طيفك وأحلم باللحظة التي سأعود فيها، بعد تلك الرسائل الملتهبة، والصادقة التي كنت أبعث بها إليك شارحاً لك باليوم، تفاصيلها الجميلة والرائعة، التي تمنيت لو تشاركينيها ولو في الخيال! تمت الوحدة بين شمال اليمن وجنوبه كما تعرفين في مايو **90**! وكنت بين نارين! العودة لصنعاء ومصارحتك بحقيقة عائلتي أو الهروب من مواجهتك، بعد أن أخفيت حقيقة وجودها عليك طيلة فترة بقائنا معاً. عائلتي التي هي في أمس الحاجة إليّ بعد أن أصبح السبب الذي أبعدني عنها طيلة أربع سنوات، أخف وطأة على نفسي.

تزوجت في سن مبكره جداً. شدة حبي لأمي جعلني لا أرفض طلبها، وهي تريد الاطمئنان على ابنة أختها

اليتيمة، لإنقاذها من براثن زوجة الأب، بعد أن عانت منها طويلاً. كان ذلك قبل ذهابي لاستكمال دراستي العليا في ألمانيا، للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه، في أواخر السبعينات التي شهدت فيها أيضاً عدن أحداث سياسية واضطرابات، فضل البعض البحث عن طرق للخروج منها وكنت منهم، وجاء ترشيحي للمنحة مخرجاً وحلاً لأمور كثيرة كنت سأعاني منها فيما لو بقيت!.

"أمل" الحروف الأولى لأسماء أولادي الثلاثة "أروى، مها، ليث" عشرة أعوام لم أبقى معهم فيها غير عام ونصف تقريباً كانت بعد عودتي من ألمانيا في **1984**، قبل خروجي من عدن ثانية وعودتي لهم في منتصف العام **1990**. ثلاثتهم أصبحوا في سن حرجة تطلبت وجودي في تلك الفترة! وأكثر من ذلك تطلبت هدوئي حتى في تدريس مبادئ الحرية والتصدي لكل الأوضاع التي تضر المجتمع ومصالحه أمام المصالح السياسية التي يدفع ثمنها المجتمع أولاً وأخيراً!.

كانت حكايتي معك وحبي لك، هي أول ما سردته لأمي وأنا في حنان حضنها الدافئ، الدافق بالحب حال وصولي عدن. وكانت دموعها لشعورها بي وبما أعانيه من خوفي وقلقي عليك، في تلقي صدمة اختفائي المفاجئ، تعبير صادق عن توحدها معنا وإحساسها الرائع بنا...

توقعت عدم استسلامك لهذا الاختفاء واحتمال اتصالك. أتذكر جيداً الساعة التي سطرت فيها عنواني

في عدن ورقم هاتف منزل العائلة في لحظات حنين وشوق جارف لعدن ولمنطقة الشيخ عثمان، التي زرتها وبقيت فيها بضيافة أم زياد والمسافة بيننا لا تتعدي الكيلومتر الواحد!...

طلبت من أمي فيما لو اتصلت تسريب ذات الجملة التي قالتها لك (بكره جمعه بيزورني هو وعياله، لو تحبي اتصلي بكره، وقت الغداء!...) تمهيداً لإعلامك بحقيقة الأمر حتى لو تأخر اتصالك ستة أعوام تحديداً قبل سفرك للقاهرة كما علمت!...

تتبعت خلال الست سنوات تلك عن بعد أخبارك، دون أن تعلمي. قررت بعد حصولك على الماجستير زيارة صنعاء ومصارحتك بكل شيء لتكوني أنت صاحبة القرار النهائي في تلك العلاقة النبيلة، النقية، الصادقة، التي قهرتها الظروف!. لكن دائماً يحدث ما لا يتوقعه الإنسان دائماً. سماعي بخبر زواجك، جعل موازين الدنيا في مسيرة حياتي مختلة، رغم ذلك كنت أشعر ببصيص أمل يرفض أن يخبو من أعماقي!...

بعد وفاة زوجك تمنيت أن تتصلي وأن تعرفي ما أعلم جيداً أنه يشغل بالك ويؤرق ليلك طيلة الفترة السابقة! ولمَ لَم تفعلي! أرسلت لك تلك الرسالة قبل سفرك التي حرضت جزءاً من فضولك، واتصلت بأمي وعرفت منها الجزء اليسير من الموضوع لكنه الأهم، تمهيد سيؤدي بك إلى أمرين، إما متابعة بقية الحكاية والاتصال في الموعد الذي حددته لك أمي، وإما المضي قدماً في استئناف حياتك بعيداً عن كل ما سببه لك هشام من ألم

وعذاب!. وقد اخترت الحل الثاني الذي أراحني أنا أيضاً رغم قسوته عليّ.

بسبب أجازات وسفر معظم الدكاترة في نفس تخصصي من جامعة صنعاء، حدث عجزٌ لم يتنبهوا له في عدد أعضاء هيئة التدريس، ومن ثم تم طلبي للانتقال من جامعة عدن إلى جامعة صنعاء بعد سفرك بعام.

وكانت أجمل صدفة وهبة عظيمة من هبات القدر قرار ترشيحي في مجلس القسم للسفر للقاهرة للمشاركة كممتحن خارجي لأطروحة الدكتوراه الخاصة بك، التي من حسن حظي أنك اخترت فيها نفس تخصصي! والباقي أنت تعرفيه جيداً!...

عدت للصمت مجدداً. ربما لأني لم أعرف بم أجيب أو بم أعلق على كل ذلك. نهضت فجأة. يسيطر عليّ هاجس السير على "كوبري قصر النيل" برفقة هشام، بعد أن حلمت بذلك طيلة الثلاثة أعوام الماضية! ولكي يصبح الحلم حقيقة، لابد أن تجتاز أماكن كثيرة برفقة من تحب!. أماكن ستعصف بمخيلتك، وستسارع من نبضات قلبك، سيدهشك ألقها، وكأنك تنظرها لأول مرة.

هذا هو الطريق الذي أسميتَهُ "كسر الخواطر" لمرورك وحيداً فيه، تعدَّل إلى "طريق جبر الخواطر" يحتضن رصيفه خطواتكما! تهمس أزقته في أذنيك "مبروك وصول رفيقك". ستشكرك أشجاره العالية على مداعبة أوراقها بحنو، وأنت ترسم على شفتيك ابتسامة تكاد تفضح ما يدور في أعماقك أمام المارة، المارة الذين كنت تسترق النظر إليهم وتتمنى لو يعود الزمن إلى

الوراء، لتتأبط مثلهم ذراعاً، وتخطف مثلهم لمسة، وتذيبك مثلهم نظرة!...

ستعبر "الكوبري" غير مصدق بأنك فعلاً تساويهم في تلك اللحظة، تتأبط ذراعاً، وتطوق خاصرتك الأخرى، سيستقبلك وجه النيل، مبتسماً كعادته. لن يرهقك بأسئلته، ذلك العظيم الذي يعلم كما تعلم أنت تماماً بأن لحظات سعادتك نادرة، وأنك دائماً تكتفي بعبق الذكريات حتى ولو كلفك ذلك مزيداً من الألم ومزيداً من الدموع. سيحترم صمتك، وسينتظر بشوق مناجاتك، سيبتلعها بتأن. كم هو كاتم أسرار أمين!.

ستسير ببطء، تنظر نحوهم بائعي الورد والفل، الذين كانوا لا يلتفتون إليك، لأنك وحيد! يتقدمون باتجاهك، تاركين الفل يقوم بتهنئتك عوضاً عن عباراتهم، يمارسون عليك أساليب الترغيب المتبعة لديهم بزيادة الكمية لأن من بجانبك يستحق ذلك.

ستتقدم باتجاه هدفك... ستتسمر قدماك للحظات وأنت تطيل النظر في ميدان التحرير، الذي بدا لك رغم مبانيه المحيطة، وتدفق الناس والآليات إليه من كل صوب، فضاء فسيح، أعادك لذراع أخرى تأبطتها في طفولتك، ووجه ملائكي تولى حراستك، وقهقهات تدغدغ سمعك، جعلت من جسدك ريشة تعبث بها الريح في أعطاف الفضاء الذي تحلق فيه نشوتك عالياً...

عند وصولك للجهة الأخرى ستنظر المسافة التي عبرتها مجدداً، محاولة أخرى لحفر تفاصيل ترغب لو

تظل طازجة، شهية، وتردد "إنها كذلك حتى لو أصبحت ذكريات ".

أنهيت كل ذلك التحليق أمام فندق "سمير أميس" وهشام ممسكٌ بيدي يودّعني بنظراته التي تتساءل لماذا فضلت الصمت على الرد على كل ما قاله لي! ولماذا لم أبد رأيي في كل عروضه ومقترحاته لاستمرار ما بيننا! حتى أنه لا يعلم فيما إذا كنت قد سامحته أم لا! واكتفى بقوله إنه في انتظاري لحين عودتي بعد انتهاء إجراءات إنهاء المنحة وحصولي على الشهادة بعد هذا العناء!.

بعد مغادرة هشام للقاهرة مباشرة وعودتي لحجرتي الصغيرة التي ما زالت رائحة الفل تعصف بها وبي أيضاً، أخرجت مفكرة زرقاء جديدة. أظنني الآن وفي هذه اللحظة بالذات والمفكرة الزرقاء أمامي، والقلم الأخضر يعانق أصابع يدي! عرفت لمَ انتابتني هذه الرغبة الجامحة، الملحة للكتابة، التي لم تداهمني منذ زمن. تحديداً منذ ما يقارب الواحد والعشرين عاماً، منذ أن أصبت بفوبيا الكتابة في المفكرة ذات اللون الأزرق!...

كنت بحاجة بعد الانتهاء من تدوين كل ذلك أن لا أضع أسئلة واستفسارات هشام التي لم أجب عليها، أمام عيني فقط، بل أن أجيب على ما اعتمل في أعماقي من أسئلة لا حصر لها بعد استرجاع وكتابة كل هذا!...

نهضت من الكرسي، توجهت إلى الشرفة المطلة على النيل، كان شهيقاً طويلاً ذلك الذي جدد في أعماقي كل ما شارف على الذبول، قبل أن أردِّد بهدوء وبصمت وبتأمل

لكل ما حولي ما كَتبتْهُ صديقتي العزيزة جداً هناء التي تقول إنها لا تجيد كتابة الشعر لكنها تعشقه!: "الآتي، هل يحمل ما أتمنى أم ما أكره؟!"...

القاهرة، نوفمبر **2005**

نادية يحيى الكوكباني

- **أستاذ مساعد/ قسم العمارة / كلية الهندسة / جامعة صنعاء.**
- **دكتوراه في الهندسة المعمارية، جامعة القاهرة،2008 م**
- **عضوة "لقى" مؤسسة الثقافة النسوية وحوار الحضارات.**
- **عضوة اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.**
- **حاصلة على المركز الثاني في مسابقة جائزة الدكتورة سعاد الصباح للأبداًع الفكري والأدبي (القصة القصيرة، 2000).**
- **حاصلة على جائزة رئيس الجمهورية للشباب 2001.**

صدر لها:

- **زفرة ياسمين، مجموعة قصصية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 2001.**
- **دحرجات، مجموعة قصصية، مؤسسة لقى، صنعاء. 2002.**
- **تقشر غيم، مجموعة قصصية، اتحاد الإدباء والكتاب اليمنيين. 2004.**
- **نصف انف... شفة واحد ة، ثلاث مجاميع قصصية وكتابات نقدية، وزارة الثقافة، صنعاء، 2004.**
- **عادة ليست سرية، مجموعة قصصية، دار عبادي للطباعة والنشر، صنعاء، 2012م**
- **تحت الطبع الرواية الثالثة "صنعائي"**

www.zafrah.net
nadiahkokabany@hotmail.com